التّشبيه البليغ بأسلوب المفعول المطلق في كتاب نهج البلاغة

أ. د. عبد الهادي خضير نيشان

جامعة بغداد / كلية التربية للبنات

تظل بلاغة الإمام علي عليه السلام نبعاً لا ينضب مهما ازدحم حوله القُصّاد، وبحراً لا تنفد جواهره على كثرة الغائصين فيه، ممن يأسرهم جمال التعبير وبراعة الصورة. وكان لا بدّ لنا بما منّ الله علينا به من معرفة بلاغية من أن نحاول الدنو من عالم الإبداع والخلق المبتكر لهذا المبدع الذي خصه الله ببلاغة لا تدانيها بلاغة أحد من البشر، هي التي تمثلت في كتابه (نهج البلاغة).

المقدمة:

تظل بلاغة الإمام علي عليه السلام نبعاً لا ينضب مهما ازدحم حوله القُصّاد، وبحراً لا تنفد جواهره على كثرة الغائصين فيه، ممن يأسرهم جمال التعبير وبراعة الصورة.

وكان لا بدّ لنا بما منّ الله علينا به من معرفة بلاغية - من أن نحاول الدنو من عالم الإبداع والخلق المبتكر لهذا المبدع الذي خصه الله ببلاغة لا تدانيها بلاغة أحد من البشر، هي التي تمثلت في كتابه (نهج البلاغة)، كي نبحث في جانب من جوانب براعة الصورة فيه، ممثلة بالتّشبيه البليغ الذي وجدناه بضروبه المختلفة حاضراً حضوراً ملفتاً في النهج، ولأن وقفتنا ستكون متأنية عند هذا النوع من التّشبيه وبما لم نجده في دراسات بلاغية توافرت على النهج، آثرنا أن تأتي دراستنا لهذا التّشبيه على وفق ضروبه، حيث يأتي كل بحث مختصاً بواحد من هذه الضروب، مبتدئين - بإذنه تعالى - بالتّشبيه البليغ بأسلوب المفعول المطلق.

كلما قرأت كلاماً للإمام علي عليه السلام أو سمعت واحدة من حِكمه أو أقواله المأثورة التي يتداولها الناس في شؤون حياتهم اليومية المختلفة، تذكرت مقولة للإمام الرّمّاني وهو يفسر في رسالته المعروفة (النكت في إعجاز القرآن) لماذا توقف القرآن الكريم في تحديه للعرب - وهم أهل الفصاحة وأرباب البلاغة - عند حدود الآتيان بسورة من مثله، ولم ينزل إلى أدنى من ذلك، أي إلى الآية؟ فمعلوم أنّ القرآن الكريم تحدّى العرب أنْ يأتوا بمثله أولاً، فقال سبحانه وتعالى ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1].

فلما عجزوا عن أنْ يأتوا بمثله، نزل في تحديه لهم إلى عشر سور فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٢].

ولكنهم عجزوا أيضاً، فنزل في تحديه لهم إلى السورة الواحدة من دون تحديد لعدد آياتها كثُرت أم قلَّت، فقال سبحانه: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٣]، ثم كَرّر التحدّي بالسورة في موضع آخر من القرآن الكريم، فقال سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٤].

فلما عجزوا عن المجيء ولو بسورة واحدة من مثله، حق عليهم إعجاز القرآن. وحين وقف الرّمّاني عند هذه القضية وحاول أنْ يفسر لماذا لم ينزل القرآن في تحديه للعرب إلى مستوى الآية؟ قال كلاماً في غاية الأهمية، خلاصته: أنّ في كلام بعض بلغاء العرب ما يمكن أنْ يرتفع في بلاغته إلى مستوى الآية القرآنية في حسنها وبلاغتها، واستشهد لذلك بقول الإمام علي عليه السلام: «قيمة كلّ أمرئ ما يحسن» فهذه المقولة للإمام بما فيها من إيجاز في المعنى وعذوبة في اللفظ تقارب الآية القرآنية في بلاغتها، يقول الإمام الرّمّاني «وظهور الإعجاز في الوجوه التي نبيّنها يكون باجتماع أمور يظهر للنفس أنّ الكلام من البلاغة في أعلى طبقة، وإنْ كان قد يلتبس فيما قلّ بما حسن جداً لإيجازه وحسن رونقه وعذوبة لفظه وصحة معناه كقول علي رضي الله عنه «قيمة كل امرئ ما يحسن» فهذا كلام عجيب يغني ظهور حسنه عن وصفه، فمثل هذه الشذرات لا يظهر بها حكم فإذا انتظم

الكلام حتى يكون كأقصر سورة أو أطول آية ظهر حكم الاعجاز، كما وقع التحدي في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ فبان الإعجاز عند ظهور مقدار السورة من القرآن»[٥].

فأيّ بلاغة هذه التي أراد لها الله سبحانه وتعالى، أنْ تكون دون كلام الخالق، وفوق كلام المخلوق - باستثناء نبيه عليه وعلى آله أفضل الصلوات والتّسليم - وكيف يتأتّى لنا نحن البشر أنْ نحيط بأقطار هذه البلاغة المعجزة أو أنْ نلمّ بأسرارها مهما أوتينا من العلم ومهما أجهدنا أنفسنا في الغوص بأعماق هذا البحر العميق بحثاً عن جواهره الفريدة.

وبذا فمهما تعددت مناحي القول في كلام الإمام علي عليه السلام ومهما تشعّبت سواء في جوانبها الأدبية أو الفكرية أو العقائدية أو الاجتماعية أو التشريعية أو النفسية، يبقى هذا الكنز الثمين معيناً لا ينضب، ويبقى القول في بلاغة الإمام عليه السلام، مهما أوتينا من العلم، فوق طاقاتنا وأكبر من أنْ نحيط بها، ولا عجب، فقد ألهمه ربُّه من العلم ما نعجز عن إدراكه فضلاً عن تحمّله، وهو ما صرّح به عليه السلام في قوله «بل اندمجتُ على مكنون علم لو بحتُ به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطوى البعيدة»[٦].

ولكن يبقى هذا النص العظيم حافزاً للدراسة والإبداع، وتظل بلاغته كوكباً درّياً يستقطب أنظار المتلهفين للمعرفة والطامحين لأن يرووا ظمأهم من هذا المعين العذب، وهكذا، كان لابد لنا من أنْ نقف على جانب مهم من جوانب الإبداع في كلام الإمام علي عليه السلام متمثلاً بالصورة البلاغية في نهج البلاغة، وسعينا أنْ تكون دراستنا هذه متميزة من الدراسات التي سبقتنا في ذلك، وذلك بأنها ستكون - بأذنه تعالى - مفصّلة

أكثر ومتعمّقة بشكل أوسع في وقوفها عند الأنواع البلاغية لهذه الصورة، حيث سنبدؤها بنوع واحد من أنواع التّشبيه البليغ وهو التّشبيه البليغ بأُسلوب المفعول المطلق، على أنْ نسعى بعد ذلك إلى دراسات لاحقة لأنواع أخرى من التّشبيه في نهج البلاغة، مما لم يعرض لها من درس هذا الجانب في كتاب نهج البلاغة، أو لم يقف عليها وقفتنا المتأنية المعمقة إن شاء الله.

التّشبيه البليغ هو التّشبيه الذي حذفت منه أداة التّشبيه ووجه الشبه، وهو أوجز أنواع التّشبيه وأكثرها إثارة للذهن، لأنّ الاكتفاء من التّشبيه، بطرفيه (المشبه والمشبه به) فقط، فيه من المبالغة الشيء الكثير، ذلك لأنّه يرفع المشبه إلى مستوى المشبه به حتى يبدوا وكأنهما نظيران ولا تفاضل بينهما، وهي مبالغة كبيرة، ذلك لأنّ التّشبيه يقوم على قاعدة مؤدّاها أنّ المشبّه به أقوى من المشبّه في وجه الشّبه وأوضح منه، وإنّما يؤتى به لتوضيح المشبّه وترسيخه في الأذهان، ولو كان المشبّه هو المشبّه به – وهذا ما تقتضيه صيغة التّشبيه البليغ - لما قامت الحاجة إلى التّشبيه أصلاً، ولكن المبالغة في قوة الشّبه هي التي تستدعي هذه الصيغة من التّشبيه، فتعمل على تحفيز الخيال وترسيخ الصورة في الذهن.

تتباين درجة الخيال في التّشبيه البليغ بتباين تركيب أُسلوبه إذ يمكن للتشبيه البليغ أنْ يأتي بصيغ أسلوبية مختلفة[٧] استطعنا أنْ نرصد منها في نهج البلاغة الأنواع الآتية:

١. المشبّه والمشبّه به مبتدأ وخبر، أو ما أصله مبتدأ وخبر، فمن الأول قول الإمام عليه السلام في فضل أهل البيت عليهم السلام: «نحن الشِّعار والأصحاب، والخزنة والأبوابُ، ولا تؤتى البيوت إلاّ من أبوابها، فمن أتاها من غير أبوابها سُمِّيَ سارقاً»[٨].

فقد شبّه الإمام عليه السلام نفسه وأهل بيته بالشِّعار (وهو ما يلي البدن من الثياب) إشارة إلى أنّهم بطانة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأقرب إليه نسباً ومعيشةً وعلماً، ثم شبّههم تشبيهاً بليغاً ثانياً بالخزنة والأبواب، فهم خزنة علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهم أبواب دخول مدينة علمه، فقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم نفسه: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»[٩].

وكيف يتأتى لكائنٍ من كان أنْ يلج هذه المدينة الفاضلة إن لم يمر على خزنتها ليتحصّل على موافقتهم ورضاهم، ثم يقومون هم بفتح الأبواب له، فإن لم يكن هذا طريقه، فهو سارق حتماً ويحق عليه القصاص.

جاء التّشبيه البليغ في العبارة بأُسلوب المبتدأ والخبر «نحن الشِّعار» ثم عطف على المشبّه به الأول مشبهين بهما آخرين «الخزنة والأبواب»، ويتوضح من خلال هذا التّشبيه جمال الصورة التي رسمها الإمام عليه السلام لعلاقة أهل البيت بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم فضلاً عن هذا التأكيد المتأتي من صيغة المبتدأ وخبره، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام شيء واحد، لا انفصام بينهما ولا يتم أحدهما إلا بالآخر، شأن المبتدأ والخبر.

ومن هذا التّشبيه أيضاً قوله في وصف القرآن الكريم: «وكتاب الله بين أظهركم ناطقٌ لا يعيى لسانهُ، وبيتٌ لا تهدم أركانهُ، وعزٌّ لا تهدم أعوانُه»[١٠].

شبّه الإمام عليه السلام كتاب الله ثلاثة تشبيهات بليغة بأُسلوب المبتدأ والخبر فهو (ناطقٌ) و(بيتٌ) و(عزٌّ)، وكي يزيد المعنى قوةً ووضوحاً رشّح الإمام عليه السلام تشبيهاته الثلاثة، أي قوّاها، بذكر لازمة من لوازم المشبّه به بعد كل تشبيه، فحين شبّه القرآن بالإنسان الناطق، رشّحه بقوله «لا يعيى لسانه» وحين شبّهه

بالبيت، رشّحه بالقول «لا تهدم أركانه» وحين شبّهه ثالثة بالعزّ، رشّحه بعبارة «لا تهزم أعوانه»، وكل عبارة من هذه العبارات الثلاث أكّدت المعنى المراد من التّشبيه ورسّخته في ذهن السامع.

أما النوع الثاني وهو (ما أصله مبتدأ وخبر) فهو ما كان في أصل الكلام بأُسلوب المبتدأ والخبر، ولكن دخلت عليه واحدة من نواسخ الإبتداء فغيّرت من صيغته، ومن هذا قول الإمام عليه السلام في خطبته المشهورة في الحثّ على الجهاد وبيان فضله: «أما بعد، فإنَّ الجهادَ بابٌ من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه»[11] فأصل التّشبيه (الجهاد باب من أبواب الجنة) ولكن الرغبة في تأكيد المعنى وتقويته في نفوس سامعيه دعت الإمام عليه السلام إلى إدخال (إنَّ) المؤكّدة عليه، وهكذا اجتمعت ثلاثة أمور في هذه العبارة أعطت للمعنى الذي يريده الإمام عليه السلام في الحثّ على الجهاد والإقدام عليه، قوةً وتجسيداً تمثلتاً بدخول (إنَّ) المؤكّدة، وصيغة التّشبيه البليغ بما فيها من مبالغة وتأكيد، ثم ترشيح المشبّه به (باب) بأن جعله من أبواب الجنة، ثم أكّده كذلك بقوله (فتحه) ولذلك صار الجهاد باباً حقيقياً يأتمر بأمر الخالق سبحانه حيث لا يفتحه إلاّ لخاصة أوليائه.

ومن هذا الأسلوب في التّشبيه ما جاء في كلام للإمام عليه السلام وهو يصف حال المتقين الذين يدخلون الجنة، في معيشتهم الدنيوية، فيقول: «وكان ليلهم في دنياهم نهاراً تخشعاً واستغفاراً، وكان نهارهم ليلاً توحشاً وانقطاعاً»[12].

فهؤلاء المتقون الذين سيقوا إلى الجنة زمراً، ما فازوا بها إلاّ بأن اشتروا آخرتهم بدنياهم، فقد صار ليلهم في دنياهم نهاراً إذ يقضونه في الصلاة والتعبد خشية من الله واستغفاراً له مما قد يقعون فيه من ذنوب في شؤون حياتهم اليومية وبذا لم

يعد الليل وقتاً للنوم إنما للتخشع والاستغفار، أما نهارهم فقد صار ليلاً إذ انقطعوا عن الدنيا وملذاتها وانصرفوا عن مباهجها، مستوحشين نافرين خوف أنْ تؤدي بهم إلى المعاصي والآثام.

ويلاحظ دخول (كان) الناقصة على التّشبيه فصار المشبّه (ليلهم) و(نهارهم) اسماً لها، وصار المشبّه به (نهاراً) و(ليلاً) خبراً لها.

٢. المشبّه والمشبّه به في تركيب إضافي، نلمس فيه المشبه به مضافاً إلى المشبه، ولعلّ هذه الصيغة من التّشبيه البليغ أكثرها مبالغة وأشدها تأكيداً للتشبيه، ذلك أنّ قاعدة التّشبيه الراسخة هي أنّ المشبّه به هو الأتم في وجه الشبه، وهو (الأصل) فيه، ولكن يجري، بحسب صيغة التّشبيه البليغ بأُسلوب التركيب الإضافي، إضافة المشبّه به إلى المشبه، بما يبدو وكأنه جزء منه أو تابع له، وهذه هي الغاية في المبالغة، إذ لم تقف المبالغة عند حدود جعل المشبّه والمشبّه به نظيرين، كما مرّ في صيغة المبتدأ والخبر، وإنما تشتد المبالغة حدّ أنْ تجعل المشبّه به تابعاً للمشبّه وكأن وجه الشبه أرسخ وأقوى في المشبّه، منه في المشبّه به. وقد دار هذا اللون من التّشبيه البليغ على لسان الإمام عليه السلام كثيراً في نهج البلاغة ومن ذلك قوله في وصف بعض أهل زمانه: «قد خاضوا بحار الفتن، وأخذوا بالبدع دون السُّنَن»[١٣].

فقوله (بحار الفتن) تشبيه بليغ بأُسلوب التركيب الإضافي، فالأصل فيه تشبيه الفتن بالبحار بجامع العظمة والخطر المؤديان إلى الهلاك أي (الفتن بحار) ثم جرى إضافة المشبّه به (بحار) إلى المشبّه (الفتن) فصار التّشبيه (بحار الفتن) وفي هذا قوة للتشبيه وتعظيم للمعنى الذي أراده الإمام عليه السلام في التحذير من الفتن وما تؤديه باتباعها من الوقوع في الهلاك والموت بعد غرقهم فيها، وبذا

يـأتي التّشـبيه في غايـة الإيجـاز ولكنـه في الوقـت نفسـه في غايـة المبالغـة والتأكيـد، فلنـا أنْ نتصـور هـذه الفـتن الـتي تعصـف بالناس وقد استحالت بحاراً طامية يخوض فيها الجاهلون من دون علم ودراية حتى تغرقهم فيها فيستوون في قاعها حتى كأن لا وجود لهم ولا أثر، شأن البحار التي تبتلع السفن والناس فلا تُرى منهم بقية.

ومن هذا التّشبيه كذلك قوله عليه السلام وهو يصف إبليس (لعنه الله) في اعتراضه على الله سبحانه في خلقه لآدم ورفـض السـجود لـه «فعـدو الله إمـام المتعصـبين، وسـلف المسـتكبرين، الـذي وضـع اسـاس العصـبية، ونـازع الله رداء الجبرية، وادَّرع لباس التعزز، وخلع قناع التذلل»[١٤].

في العبـارة ثلاثـة تشـبيهات بليغـة، جـاءت كلـها بأسـلوب التركيـب الإضـافي هـي «رداء الجبريـة» و«لبـاس التعـزز» و«قنـاع التـذلل»، وفيهـا جميعـاً أضـيف المشبّه بـه إلى المشبّه، ففـي التّشـبيه الأول شـبهت الجبريـة بـالرداء وفي الثـاني شُـبّه التعـزز باللبـاس وفي الثالـث شُـبّه التـذلل بالقنـاع... وبلاغـة التّشـبيه في التّشـبيهين الأول والثـاني متأتّيـة مـن تشـبيه الجبريـة والتعـزّز بـالرداء واللبـاس الـذي يشـتمل الإنسان ويغطي غالـب جسـمه، وكـذلك هـو إبلـيس حـين خلـع رداء الرضـوخ لله سبحانه وتعـالى وتـردّى بـدلاً منـه التعـزّز لباسـاً، وإنَّـه كشـف عـن وجهـه الحقيقـي بعـدما تقنّـع قـبلاً بالتـذلل لله تعـالى والخضـوع لمشـيئته، ولكنـه لسـوء طويتـه وفساد نفسـه فشـل في أول امتحـان أجـراه الخالق له كـي يفضـحه أمـام نفسـه ويجـبره علـى أنْ يضـع عـن وجهـه قنـاع التـذلل ويكشـف عـن وجهـه الحقيقـي في قبحـه وكراهة منظره.

٣. المشبّه به مفعول به: كقول الإمام عليه السلام في واحدة من عظاته، وهو يصف المؤمن بصفات منها «كـابر هـواه،

وكذَّب مناه، جعل الصبر مطية نجاته، والتقوى عدة وفاته»[١٥].

ففي العبارة تشبيهان بليغان بطريقة المفعول به وهو قوله «جعل الصبر مطية نجاته» و«التقوى عدة وفاته» إذ المشبه في كل تشبيه منهما هو المفعول به الأول للفعل (جعل) وهما (الصبر) و(التقوى) والمشبّه به في كليهما هو المفعول به الثاني وهما (مطية نجاته) و(عدة وفاته).

ولا شك في أنَّ صورة التّشبيه الأول المتمثلة في تحوّل الصّبر إلى مطية يمتطيها الإنسان كي تبلغ به النجاة من النار صورة معبرة ومكتنزة بالمعاني الظاهرة والخفية منها.

فهي تعبّر عن قوة إيمان الإنسان وقدرته على تذليل الصّبر -على مرارته - حتى يستحيل ظهراً يمتطيه، فهو بدل أنْ يُذل بالإنقياد إلى شهواته أو الرضوح لمصاعب الحياة، يقلب الصورة ليقهر بأيمانه الصّبر، فكأن صراعه ليس مع الشهوات أو المصاعب أنّما مع الصّبر، فإذا غلبه صار له مطية ذليلة تنجيه من العذاب.

وكذلك هي الصورة في التّشبيه الثاني حيث تستحيل التقوى إلى عدّة وزاد يحملها عند وفاته حين يخرج خالياً ومفلساً من كل ما كان له في الحياة الدنيا، إلاّ التقوى فهي خير زاد له وعدّة، ومن هذا الباب قوله واعظاً أيضاً ومزهداً بالدنيا وبهرجها: «ولبئس المتجر ان ترى الدنيا لنفسك ثمنا، وممَّالكَ عند الله عوضاً»[١٦].

فالعبارة قائمة على التّشبيه البليغ بطريقة المفعول به، حيث صارت (الدنيا) مفعولاً به أول للفعل (ترى) وهي المشبّه، و(ثمناً) و(عوضاً) مفعولاً به ثانياً وهما مشبّهان بهما.

فأية تجارة خاسرة هذه التي يبيع الإنسان فيها نفسه كي يشتري حياة زائلة تقاس بالأيام والسنين ويترك حياة الخلد

في جنات النعيم، وأيّ عقل هذا الذي يعد ما يجده في حياته الدنيا عوضاً كافياً عما سيجازيه الله سبحانه في حياته الثانية إنّها بلا شك لبئس المتجر كما قال الإمام عليه السلام.

٤. المشبّه والمشبّه به مربوطان بحرف الجر، سواء تقدم المشبّه أو المشبّه به، وهو من الأنواع الكثيرة الاستعمال، الدائرة حتى في كلامنا الدارج، كما في قولنا (شعر من ذهب أو قلب من حجر)، ولكن قلّما يلتفت إلى هذا النوع من التّشبيه دارسو الصورة البلاغية.

وقد دار هذا التّشبيه على لسان الإمام عليه السلام كما توضح لنا من دراسة النهج، ومن ذلك قوله يصف أولئك الذين يتصدون للحكم أو الفتيا وهم ليسوا أهلاً لها فهم متشبهون بالعلماء وليسوا علماء.. يقول: «حتى اذا ارتوى من آجن، واكتنز من غير طائل، جلس بين الناس قاضيا ضامنا لتخليص ما التبس على غيره فإن نزلت به أحدى المبهمات هيأ لها حشواً من رأيه، ثم قطع به»[١٧].

فقد شبّه رأي هذا المتعالم، لفساده وقلة نفعه، بالحشو الذي لا فائدة منه وكي يؤكد ابتذال هذا الرأي وتفاهته وصفه بأنّه (رثٌّ) أي متهرئ ليس له من الحجة والمنطق ما يقويه أو يدفع الآخرين إلى التصديق به.

فالتّشبيه البليغ جاء في قوله: «حشواً رثاً من رأيه» أي أنّ رأيه كالحشو الرث، وبذلك نلاحظ الربط بين المشبّه (رأي) والمشبّه به (حشو رث) بحرف الجر (من) وبتقدم المشبّه به على المشبّه.

ومن هذا التّشبيه قول الإمام عليه السلام مخاطباً أنصاره وهو يحثهم على مقاتلة أصحاب معاوية في صفين: «فالموت في حياتكم مقهورين والحياة في موتكم قاهرين»[١٨].

فقد شبّه حياة المقهورين الأذلاء بالموت في قوله «فالموت في حياتكم مقهورين»، وشبّه كذلك موت القاهرين المنتصرين بالحياة في قوله «والحياة في موتكم قاهرين» حثاً لهم وتحفيزاً على رفض الظلم والقهر، والاستشهاد دفاعاً عن الكرامة التي هي الحياة الحقيقية، أمّا حياة الذل فإنّها موت ولكن أيُّ موت؟ إنّه موت الذل والمهانة.

وفي كلا التّشبيهين جرى ربط المشبّه به (الموت) والحياة) بالمشبّه (حياتكم مقهورين) و(موتكم قاهرين) بحرف الجر (في).

٥. المشبّه به حال من المشبّه، كقول الإمام عليه السلام في وصف الايمان: «إن الإيمان يبدو لُمْظَةً في القلب، كلما ازداد الايمان ازدادت اللُّمْظَة»[١٩].

فقد شبّه الإمام ولادة الإيمان في قلب الإنسان باللمظة أي القدحة، التي يشتد توهجها ويزداد نورها بزيادة الإيمان، أي أنّ الإنسان يستطيع أنْ يجعل قلبه عامراً بنور الإيمان ممتلئاً بالخير كلما ازداد تقوى وقرباً من الله سبحانه بزيادة الايمان الذي يولد لمظة ثم يزداد بعدها.

٦. المشبّه به مصدر مبين للنوع أي مفعول مطلق، وهذا اللون من التّشبيه هو الذي سندير عليه بحثنا هذا في كتاب نهج البلاغة.

تتمثل البنية التركيبية للتشبيه البليغ بأُسلوب المفعول المطلق بأن يكون المشبه فعلاً، يراد من التّشبيه إيضاح طبيعته أو مقداره أو بيان حاله أو تزيينه أو تقبيحه.

إلى غير ذلك من أغراض التّشبيه فيأتي المشبّه به بصيغة المصدر لذلك الفعل مبيناً نوعه (أي مفعولاً مطلقاً) كما في قولنا: (انتشر الفساد في هذه الأيام انتشار النار في الهشيم)، فالمشبّه الذي يراد إيضاح صورته وتقدير مقداره في نفوس السامعين هو (انتشار الفساد)، والمشبّه به، الأقوى في وجه الشبه، والأرسخ في

الأذهان لشيوعه ومعرفة الجميع به، الذي يمكن أنْ يكون مقياساً لإدراك المشبّه (كيفية انتشار الفساد ومقداره، هو (انتشار النار في الهشيم) تعبيراً وتجسيداً لانتشار الفساد السريع وإتيانه على كل شيء، كما تفعل النار في الهشيم اليابس، في سرعة الانتشار والقضاء عليه وتحويله إلى رماد لا قيمة له.

فالتّشبيه من حيث النوع تشبيه بليغ لحذف أداته ووجه الشبه، واقتصاره على طرفيه فحسب، المشبه وهو (انتشار الفساد) والمشبه به وهو (انتشار النار في الهشيم)، والعلاقة بين المشبه والمشبه به هي علاقة الفعل بمصدره (انتشر انتشار) وهو مفعول مطلق لأنّه جاء مبيناً لنوعه بعد إضافته إلى الحال التي أريد منها زيادة المشبّه وضوحاً وتوكيداً.

ورد هذا اللون من التّشبيه كثيراً، سواء في القرآن الكريم، أو في الشعر والنثر العربيين قديماً وحديثاً. فمما ورد منه في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾[٢٠].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾[٢١].

وقوله تعالى: ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾[٢٢].

وقوله عزّ وجل: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾[٢٣].

كما كان حضوره في الشعر العربي قديماً، فها هو يرد في معلقة امرئ القيس وهو يصف صعوده إلى مخدع حبيبته، فيقول:

سموتُ إليها بعدما نام أهلُها

سموَ حَبابِ الماءِ حالاً على[٢٤]

فقد أدرك الشعراء ما في هذا اللون من التّشبيه من جمال وقدرة على تجسيد المعاني وتمثيلها للسامعين، سواء في هذا

التناغم الصوتي المتولد من التكرار الاشتقاقي في لفظ الفعل ومصدره.

أو من خلال التّشبيه الذي يصنعه خيال الشاعر وهو يلتقط مشبّها به قريبا منا حدّ الألفة ولكن لم يرد في أذهاننا أنْ نجعل منه تمثيلاً أو تجسيداً لحال أخرى.

وهكذا يجتمع في هذا التّشبيه أهم عنصرين من عناصر نجاحه، وهما المقاربة والمناسبة من جهة والغرابة والطرافة من جهة أخرى[(٢٥)].

وهو ما يمكن أنْ نتلمسه كذلك في قول المتنبي وهو يصف شعب بوان، حيث استثمر هذا اللون من التّشبيه في نقل صورة جميلة لصوت الماء وهو يرتطم بالحصى... فيقول:

وأمواهٍ تصل بأحصاها
صليلَ الحَلي في أيدي الغواني[(٢٦)]

فنحن لم نزر شعب بوان، ولم نسمع خرير الماء فيه، ولكن الصورة التي صنعها خيال المتنبي من خلال تشبيه صليل الماء وهو يصطدم بالحصى، بالرنين العذب المنبعث من اصطدام الحلي في أيدي الفتيات الجميلات، جعلنا نتحسس جمال هذا الخرير، ثم نصاب بعدوى الشاعر وهو يعيش حالة الانتشاء واللذة بما يراه ويسمعه، فصرنا نشاركه طربه لهذه الموسيقى الجميلة التي حركت خياله.

وحين عُدنا إلى كتاب نهج البلاغة للإمام علي عليه السلام وحاولنا الوقوف على وجوه الصورة البلاغية في هذا السفر العظيم ولا سيما التّشبيه منها استوقفنا هذا الاستعمال الكثير لهذا اللون من التّشبيه في خطب الإمام عليه السلام ورسائله، حتى استطعنا أنْ نرصد ما يزيد على أكثر من سبعين موضعاً جاء فيه التّشبيه البليغ، بأُسلوب المفعول المطلق، مما حفزنا على البدء به، في أول دراسة لنا في وجوه الصورة البلاغية في النهج. ولما كانت البنية التركيبية لهذا

اللـون مـن التّشـبيه البليـغ واحـدة وهـي صيغة الفعـل ومصـدره، آثرنـا أنْ تكـون دراستنا له على وفق الأغراض البلاغية الـتي خـرج اليهـا في كـلام الإمـام عليـه السلام، ولا سيما أنّ نهـج البلاغة بكـل أجناسه النثرية سـواء في خطبه أو رسـائله أو وصـاياه أو حكمـه، قـد غلـب عليـه طابع النصح والإرشاد لما كان يستشعره الإمام من حاجة أهل زمانه واللاحقين لهـم لمثـل ذلـك، وسـيكون ترتيـب هـذه الأغـراض علـى وفـق بروزهـا في الصـور التّشبيهية وكثرتها وهي:

١. بيـان مقـدار حـال المشبّه: وذلـك حين (يكـون المشبّه معروف الصفة، قبل التّشبيه، معرفة إجمالية، ولكـن الغـرض هـو تحديـد مقـدار هـذه الصـفة، قـوةً أو ضـعفاً، زيـادة أو نقصـاناً، وضـوحاً أو غموضاً)[٢٧].

ولا غرابـة بعـد ذلـك أنْ يكـون هـذا الغـرض هـو الأبـرز بـين أغـراض التّشبيه في نهـج البلاغـة، لأن الإمـام عليـه السـلام بحاجة إلى توضيح معانيه وتأكيدها في نفوس سـامعيه، حيـث لا تنفـع المعرفـة العامـة أو المجملة، بل لابد من تحديد الاشياء تحديداً دقيقـاً، وإكسـاء المعـاني رداء الحقيقـة حتـى تتجسـد أمـام سـامعيه فيعونهـا ويتـأثرون بهـا علّها تغير ما في نفوسهم لما يريد لهـم الإمـام عليه السلام من خير وصلاح.

ومـن ذلـك مـا جـاء في إحـدى خطبـه وهـو يقـرّع أصـحابه لتخـاذلهم في مقاتلـة معاويـة وأصـحابه، مستغرباً مـن تكالـب أهـل الباطـل في الـدفاع عنـه، وتخـاذل أنصـاره وهـم أهـل الحـق عـن نصـرته، يقـول: «صـاحبُكم يطيـع اللهَ وأنـتم تعصـونه، وصـاحبُ أهـل الشـام يعصـي الله وهـم يطيعونـه؟! لـودِدْتُ والله أن معاويـة صـارفني بكـم صـرف الـدينار بالـدرهم، فأخـذ مـني عشـرة مـنكم وأعطاني رجلاً منهم»[٢٨].

أيُّ مفارقة هذه التي آلمت الإمام عليه السلام هذا الألم حتى جعلته يرتضي هذه التجارة الخاسرة حين يستبدل الدرهم بالدينار، فيود لو أنّ معاوية قايضه بأصحابه فأعطى الإمام عشرة من أصحابه لقاء واحد من أصحاب معاوية، إنّ الإمام عليه السلام في غاية الألم والتحسر وهو يرى الحق بلا ناصر ولا معين، ويرى الباطل وقد كثر أنصاره ومعينوه بل استماتوا في القتال دونه، فهم يعرفون أن صاحبهم (معاوية) يعصي الله ولكنهم يطيعونه، وهو الإمام الحق ويطيع الله، ولكن أتباعه يعصونه، وكي يعبر الإمام عليه السلام عن زهده بهؤلاء الأتباع المتخاذلين واستصغاره لشأنهم، كان التّشبيه البليغ بأسلوب المفعول المطلق «صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم» كي يقرر لهم مقدار حالهم في أنفسهم أولاً، وفي نفس الإمام عليه السلام ثانياً.

وفي كلام له عليه السلام واصفاً نفسه، وما وهبه الله من علم رباني خصَّه به، إذ لا يقوى على حمله سواه من البشر، يقول: «والله لابن أبي طالب أنس بالموت من الطفل بثدي أمه، بل اندمجتُ على مكنون علم لو بحث به لاضطربتم اضطراب الأَرْشية في الطَّوِى البعيدة»[٢٩].

فالعبارة قائمة على التّشبيه سواء في جزئها الأول، وهو يقرر شجاعته، وعدم خشيته من الموت، إيماناً، وليس تهوراً، أو جهلاً، أو جزعاً من الحياة أو شقاء بها، ولكن لأنّه يعرف ما ينتظره من خير ونعيم في حياته الثانية، بعد أنْ رأى مكانه في الجنة بين الأنبياء والصديقين والشهداء، وهكذا فهو لا يجزع من الموت بل يأنس به أنس الطفل الرضيع بثدي أمه، فالجنة ملاذه ومكانه الآمن الذي يفزع إليه كما يفزع الطفل إلى صدر أمه حيث الأمان والراحة والزاد والشراب.

وكذا الحال في جزء العبارة الثاني الذي جاء متمماً لمعنى العبارة في جزئها الأول وقائماً على التّشبيه كذلك، ولكن كان التّشبيه هذه المرة بليغاً بأُسلوب المفعول المطلق، وهو يصف ما استودعه الله من علم وما خصه به من نور رباني، يجعله زاهداً بهذه الدنيا وما فيها، ولكنه لا يقوى على البوح به لهم، لأنّه يعرف ثقل هذه الأمانة التي حَمّلها الله إياها، بما ليس في مقدور أحد من البشر سواه تحملها، فما إنْ يسمعوا بما لديه من علم حتى تأخذهم رعدة شديدة ويضطربون اضطراب الحبل الطويل في البئر البعيدة الغور، وهو أنْ يبح لهم بشيء مما خُصّ به من علم إلهي، فسوف تأخذهم الرجفة وتضطرب حواسهم وأعضاؤهم فلا يقوون على تحمّل ما يسمعون... .

وكي يبيّن الإمام عليه السلام لسامعيه حالهم فيما لو باح لهم بعلمه، حرص على أنْ تكون عناصر المشبّه به من مفردات حياتهم اليومية كي يتجسد المعنى أمام أعينهم ويتبينوا مقدار اضطرابهم فكانت صورة الحبال الطويلة التي تضطرب في البئر البعيدة، تعبيراً عن قوة هذا الاضطراب وشدته، وهي صورة ألفوها واعتادوا رؤيتها كل يوم في حياتهم، بما يرسخ المعنى في نفوسهم.

وفي واحدة من خطبه الوعظية يستثمر الإمام عليه السلام هذا اللون من التّشبيه استثماراً واضحاً في تقرير معانيه في نفوس سامعيه، في إيراد أكثر من مشبّه به لبيان مقدار حال المشبّه وتوضيحه يقول: «فوالله لو حننتُم حنينَ الوُلَّهِ العجال، ودعوتم بهديل الحمام، وجأرتم جُؤارَ متبتل الرهبانِ، وخرجتم إلى الله من الأموال والأولاد التماس القربة إليه في ارتفاع درجةٍ عنده، أو غفران سيئة أحصتها كتبه، وحفظها رسله، لكان قليلاً فيما أرجو لكم من ثوابه، وأخاف عليكم من عقابه»[٣٠].

في العبارة تشبيهان بليغان جاءا بطريقة المفعول المطلق وهما (حننتم حنين الوله العجال) و(جأرتم جؤار متبتل الرهبان) تعبيراً عن شدة الاستغفار وعمق الدعاء إلى الله سبحانه وتعالى بأن يغفر لهم ذنوبهم التي وقعوا بها، فإنّ هذا كله ليس كافياً، بل هو قليل قياساً بما يريده لهم الإمام عليه السلام من ثواب عند الله ومن خوف عليهم من عقابهم على هذه الذنوب.

وبذا كان المشبّه به الأول (حنين الوله العجال) غاية في الحنين كما تمثل في حنين النوق التي (ولهت) أي فقدت ولدها وصارت تتعجل لقاءها بشوق ولهفة، وكذا المشبّه به الثاني (جأرتم جؤار متبتل الرهبان) فإنّه الغاية في التبتل إلى الله والدعاء له فالرهبان قد اعتزلوا الحياة وانقطعوا للعبادة والصلاة، حتى صاروا مثلاً في التبتل إلى الله والدعاء باسمه على امتداد الليل والنهار بعد أنْ وهبوا حياتهم لعبادة الله والتقرب إليه بالصلاة والدعاء، ولا شك في أنّ الإمام عليه السلام أراد أنْ يقول لسامعيه أنّكم لو بلغتم الغاية في الوله والتبتل فإن ذلك قليل قياساً بما أريده لكم أو أخافه عليكم، فكان التّشبيهان البليغان بطريقة المفعول المطلق وسيلته في بيان هذا الحال.

وفي خطبته التي تسمى (القاصعة) التي يذم بها إبليس اللعين في تكبره وعدم خضوعه لحكم خالقه، يحذّر الناس من سلوك طريقته والاقتداء بأفعاله، فيقول: «فالله الله في عاجل البغي، وآجل وخامة الظلم، وسوء عاقبة الكبر، فإنها مصيدة ابليس العظمى، ومكيدته الكبرى، التي تساور قلوب الرجال مساورة السموم القاتلة»[٣١].

فحين أراد الإمام عليه السلام استحضار مقدار الضرر الذي يصيب الناس حين يتخلقون بأخلاق إبليس، وكي يردعهم عن متابعته في سوء خلقه

لا سيما الكبر، لم يكتفِ بتشبيه هذا الكبر بالمصيدة العظمى والمكيدة الكبرى لإبليس تشبيهاً بليغاً بطريقةٍ ما أصله مبتدأ وخبر، بل استعان بالتّشبيه البليغ بأُسلوب المفعول المطلق، في تشبيه ثالث وصف فيه طريقة نفاذ هذه العادة السيئة العاقبة إلى قلوب الرجال ثم فتكها بها فتكاً يأتي عليها دون عجز أو خطأ، وذلك في قوله «تساور قلوب الرجال مساورة السموم القاتلة».

فجسد لهم ذلك بتشبيه (تساورها) أي انتشارها وعملها في القلوب بعمل السموم القاتلة التي تدخل الأجسام دون أنْ نشعر بها حتى إذا انتهت إلى القلوب فتكت بها وأدت بأصحابها إلى الموت السريع.

فما أراد الإمام عليه السلام تقريره في نفوس سامعيه هو أنّ الكبر سم قاتل يتسلل إلى قلوبنا دون أنْ نشعر به حتى إذا انتشر فيها خربها وأدى بها إلى الموت.

وفي موعظة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام يحثّ فيها الناس على الصلاة ويبين فضلها عند الله، وما تعود به من نفع عليهم يقول: «تعاهدوا أمر الصلاة، وحافظوا عليها، واستكثروا منها وتقربوا بها، فإنّها كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً... وإنّها لتحتُّ الذنوبَ حتَّ الوَرَق وتطلقها اطلاقَ الرَّبْق»[٣٢].

فهو يستحضر في حديثه هذا عن فضل الصلاة تشبيه النبي محمد صلى الله عليه وآله الصلاة بالماء الجاري الذي يغتسل منه المسلم خمس مرات فلا يبقى بعدها من ذنوبه شيء، وتأتي الصورة التي رسمها الإمام عبر التّشبيه البليغ بأُسلوب المفعول المطلق مستمدة منها ومتممة لها، إذ إنّها تحتّ الذنوب (أي تقشرها) حتى يظهر جوهر المؤمن صافياً بريئاً من كل عيب كحتّنا للأوراق حتى يظهر عود الشجرة مستقيماً، ناعماً، أملساً، براقاً.

ولم يكتفِ بذلك حتى زاد هذا المعنى تأكيداً حين أردف تشبيهه السابق بتشبيه آخر لا يقل عنه طرافةً وجمالاً حين شبّه فضل الصلاة في إطلاق المرء من ذنوبه وتحريره من أدرانه بإطلاق (الربق) أي العروة من الحبل لتصبح حرة متخلصة من أسرها فكان التّشبيهان صورة نفسية رائعة لإحساس المؤمن بالرضا والسعادة وهو يتحرر من ذنوبه ومن الإحساس بأنّه أسيرها أو حتى عبدٌ لها. ولا سبيل إلى ذلك كله إلاّ بالصلاة.

ويخطب الإمام عليه السلام في الناس يستحثّهم على قتال معاوية وأصحابه، ولكنّه مدرك تماماً حقيقة أصحابه، وفساد دخليتهم، واختلاف أمرهم، وعصيانهم لأوامره، حتى بدا عاجزاً، ولا رأي له... يقول:

«غُلب والله المتخاذلون، وأيم الله إنّي لأظن بكم، أن لو حمسَ الوغى واستحر الموت قد انفرجتم عن ابن أبي طالب إنفراج الرأس»[٣٣].

فهو يدرك أنّ هؤلاء الناس حوله، ما داموا في أمن وسلام، فإذا اشتد أوار الحرب، واستشعروا دنو الموت منهم، انفضوا من حوله، وفارقوه فراقاً لا رجعة فيه، وحتى يوضح لهم مقدار يأسه من نصرتهم، ويقينه أنّهم خاذلوه، شبّه انفراجهم عنه ساعة اللقاء بانفراج الرأس عن الجسد تشبيهاً بليغاً بأسلوب المفعول المطلق.

وفي هذا التّشبيه ما فيه من دلالة على بشاعة فعلتهم وقباحة موقفهم، فالرأس حين ينفرج عن الجسد يعني الموت المحتّم، وبعدها لا تنفع إعادة الوضع إلى ما كان عليه، فالحياة لا تعود إلى الجسد بعودة الرأس إليه.

وكأنّي بالإمام عليه السلام يريد أنْ يقرر في نفوس أصحابه أنّ تخليهم عن نصرته، وعجزهم عن مقاتلة عدوهم، وتركه يلاقي عدوه وحده، نجاة بأنفسهم، ليس هلاكاً له وحده فحسب،

بل هو هلاك لهم أيضاً فما نفع الجسد بلا رأس، وماذا يمكن أنْ تفعلوا إذا وقع المحظور وغزاكم عدوكم، وأدركتم صواب كلامي بعد فوات الأوان، هل تراه يعيد الحياة اليكم؟ وما نفع الندم ساعة إذ، وبذا كان التّشبيه البليغ بأُسلوب المفعول المطلق أداة الإمام عليه السلام في استحضار كل هذه المعاني وتقريرها في نفوس أصحابه، فالتّشبيه لم يقتصر على بيان حال المشبّه (الناس في تخاذلهم وتهربهم من قتال عدوهم)، وقت الكلام فحسب وإنّما تعدى ذلك إلى قابل الأيام وما سيحل بهم إنْ لم يأخذوا بكلام إمامهم.

ويلاحظ على بنية الخطاب أنّ الإمام عليه السلام أشار إلى نفسه بالكنية (ابن أبي طالب) وكأنّه بذلك يريد أنْ يذكّر الناس من هو؟ وما صلته ببيت النبوة وما قدّمه أهل بيته من فضل للناس أجمعين إذ أخرجوهم من الظلمات إلى النور حين شرفهم الله بأن بعث الله نبيه إليهم من هذا البيت الطاهر الشريف، فهل بعد ذلك من شك في أنّ الحق مع علي، وعلي مع الحق؟

ومن التّشبيهات البليغة بأُسلوب المفعول المطلق التي جاءت على لسان الإمام علي عليه السلام لبيان مقدار المشبه قوله:

١. «يردونه وردَ الأنعام، ويألهون إليه ولَهَ الحمام»[٣٤].

٢. «فأبيتم عليَّ إباءَ المخالفين المنابذين»[٣٥].

٣. «فعطف إليها عطفَ الضروس، وفرش الأرض بالرؤوس»[٣٦].

٤. «فلا تنفروا من الحق نفارَ الصحيح من الأجرب، والبارئ من ذي السقم»[٣٧].

٥. «فكأنكم بالساعة تحدوكم حدوَ الزاجر بشوله»[٣٨].

٦. «وأتوكل على الله توكل الإنابة إليه»[٣٩].

٧. «يفضي كافضاء الديكة، ويؤر بملاقحة أرَّ الفحول المغتلمة في الضراب»[٤٠].

٨. «قوضوا من الدنيا تقويضَ الراحل، وطووها طيَّ المنازل»[٤١].

٩. «وقامت النية مقامَ إصلاتِهِ لسيفه»[٤٢].

١٠. «واعلموا أنّ دار الهجرة قد أقلعت بأهلها، وقلعوا بها، وجاشت جيشَ المرجل»[٤٣].

١١. «ولا تدنُ من القوم دنوَ من يريد أنْ ينشب الحرب، ولا تباعد منهم تباعدَ من يهاب البأس»[٤٤].

١٢. «والفرصة تمر مرَّ السحاب فانتهزوا فرص الخير»[٤٥].

١٣. «فيعيش في الدنيا عيشَ الفقراء، ويحاسب في الآخرة حسابَ الأغنياء»[٤٦].

٢. تقبيح المشبّه والتنفير منه: وذلك حين يراد الذم، أو التحقير لصرف السامع عن أمر عليه اجتنابه، لأنّ في الإقدام عليه أو الإتصاف به ضرراً أو مذمة له.

وهذا الغرض بارز في خطب الإمام علي عليه السلام ووصاياه ورسائله ولا سيما في التحذير من الدنيا ومفاتنها ودعوته للإنصراف عنها، بتقبيح ملذاتها ومغرياتها، أو في تحذيره للناس من التكاسل في أمر من أمور الدنيا والدين، كمقاتلة العدو، أو الإنجرار إلى الفتن أو عصيان أولي الأمر، ساعياً من ذلك كله إلى حثّ الناس على التمسك بدينهم، ونبذ خلافاتهم، والتخلق بخلق الإسلام.

ومن خطبه التي يحذر فيها الناس من الركون إلى الدنيا والارتهان إلى ملاذها والإغترار بنعيمها قوله: «ألا وإنّ هذه الدنيا تتمنونها وترغبون فيها، وأصبحت تغضبكم وترضيكم... وهي وإنْ غرتكم

منها فقد حذّرتكم شرها، فدعوا غرورها لتحذيرها، واطماعها لتخويفها، وسابقوا فيها إلى الدار التي دعيتم لها، وانصرفوا بقلوبكم عنها ولا يختن أحدكم خنينَ الأَمَةِ على ما زُوي عنه منها»[٤٧].

يحاول الإمام عليه السلام قدر ما يستطيع أنْ يقنع الناس أنّ هذه الدنيا فانية، وأنّ ملذاتها زائلة، وإنّما جعلها الله داراً مؤقتة نتزود منها للدار الدائمة حيث الجنة بنعيمها الذي لا يفنى ولا يزول، وهو يدرك جيداً أنّ مهمته صعبة جداً، فالدنيا، بمفاتنها، والحياة، بملذاتها، توقظان غرائز الإنسان وتحفزانه للتمتع بهما، وليس يسيراً أن تطلب من أهلها ترك هذا كله، والقبول بالقليل القليل منها، ولذا نجده يحاول استثمار طاقات اللغة في بلاغة عالية تتمكن من القلوب كي ترسخ فيها هذه المعاني، فكانت الصورة التّشبيهية التي رسمها للمتباكين على الدنيا وقلة حظوظهم منها، ممثلة بالأَمَة التي تبكي فتخن أي تصدر صوت أنينها من أنفها، في صورة قبيحة ومنفرة لهذا البكاء المزعج، ولا شك في أنّ اختيار الإمام للأمة مشبّهاً به دون سواها من النساء يأتي موافقا لا لغرض تقبيح الصورة فحسب، بل لتصوير هؤلاء المتباكين على الدنيا وملذاتها بصورة الأمة، فهم ليسوا عبيداً للذاتهم، رجالاً، وانما أمات، وبذلك نزع منهم أبرز ما يعتز به العربي من صفاته وهي (الرجولة) فهو يريد القول لهم أنّ مقياس الرجولة هو مغالبة النفس وأهوائها، والصبر على الحرمان من الدنيا ومغرياتها، وإلاّ فإن أحدكم إذا ما تباكى على الدنيا وما فاته منها كان كالأمة التي تخنُّ على ما حرمت منه.

كما يلاحظ على العبارة دقة التعبير في قول الإمام (وانصرفوا بقلوبكم عنها) فهو يدرك جيداً أنّ الإنصراف الحقيقي

عن الدنيا وملاذها لا يكون بإشاحة الوجه عنها أو تجاهلها، وإنّما بنزع ذلك من أعماق النفس الإنسانية، أي من القلوب، لأنّها متى تحررت من هواها وأهوائها، تحرر أصحابها من أَسْر الدنيا، وسعوا إلى الآخرة.

ومن هذا ايضاً قوله مخاطباً اتباعه، بعد أنْ عصوا أمره ورضوا بالتحكيم في صفين، مخدوعين بحيلة معاوية وأتباعه، ولم يستمعوا إلى نصيحته وتحذيره، «فأن معصية الناصح الشفيق، العالم المجرب، تورث الحيرة وتعقب الندامة، وقد كنت أمرتُكم في هذه الحكومة أمري ونخلتُ لكم مخزون رأيي، لو كان يطاع لقصير أمر، فأبيتم عليَّ أباء المخالفين الجناةِ، والمنابذين العصاةِ»[٤٨].

فعلى الرغم من علم الإمام عليه السلام بهذه الخديعة التي لجأ إليها معاوية وأصحابه بعد أن تيقنوا من هزيمتهم في صفين، حين رفعوا المصاحف على الرماح طلباً للتحكيم، وعلى الرغم من تحذيره أتباعه من الوقوع في هذا الفخ، إلّا أنّه اضطر إلى أن ينصاع لرأي أتباعه، بعد أنْ رأى منهم مخالفتهم لرأيه وإباءهم الأخذ بمشورته، فكان خروجهم على رأيه خروج العاصي المتمرد، والجاني المتهرب، بما آلم الإمام ألماً عميقاً وهو يرى هذا التمرد وهذا العصيان ممن يفترض بهم طاعته والامتثال لأمره، فأراد أنْ يقول لهم إنّ إباءهم لم يكن مجرد خلاف في الرأي أو تباين في وجهات النظر، وإنّما كان إباء المخالفين الجناة، والمنابذين العصاة، تقبيحاً لهذه المخالفة واستبشاعاً لهذه المنابذة، فكان التّشبيه البليغ بأُسلوب المفعول المطلق خير وسيلة في ابلاغ معاني الإمام وأحاسيسه إلى من يفترض فيهم أنّهم أتباعه ومطيعوه.

ويلاحظ في كلام الإمام عليه السلام إشارته إلى قصة قصير وتحذيره لمولاه جذيمة الأبرش في عدم الأمن للزباء

ملكة الجزيرة وإجابتها لدعوتها إياه بالزواج منها، إذ قتلته بعد ذلك فذهب قوله «لا يطاع لقصير أمر» مثلاً استعان به الإمام عليه السلام كي يؤكد لأتباعه أنّهم سيندمون على قبولهم التحكيم ندماً كبيراً، ولكن بعد فوات الأوان، وهذا ما كان. ولعلنا لا نغالي إذا ما قلنا إنّ أغلب صور التقبيح التي جاءت على وفق هذا التّشبيه في كلام الإمام علي عليه السلام جاء في وصفه سلوك أصحابه معه في صراعه مع باطل معاوية وأتباعه، فقد خالفوه الرأي في التحكيم، وتقاعسوا عن قتال عدوهم، وصاروا يختلقون الحجج في التهرب من لقائه، ويفرون من دعوة الإمام لقتاله، حتى إنّنا لنحس هذا الألم الممض الذي كان يعانيه الإمام عليه السلام، وما استولى على نفسه من شعور باليأس من الظفر بعدوه، بعد أن خذله أصحابه، حتى بدا عاجزاً، وهو القوي المقتدر، وصوره أعداؤه خائفاً من اللقاء، وهو الشجاع الذي تشهد له سوح القتال بمواقف أقرب إلى الأساطير منها إلى الوقائع الحقيقية، وظهر وكأنه بلا رأي وهو الذي خصه الله بعلم لا يقوى أنْ يحمله سواه من البشر، وإنّما صار إلى ما صار إليه لضعف أتباعه وتفرقهم، وعدم امتثالهم لأوامره ونصائحه، فها هو يصف حال هؤلاء الأتباع في صوره غاية في القبح والكره، حين يدعوهم لقتال أتباع معاوية، ولكنهم يتهربون من اللقاء ويفرون مختبئين في بيوتهم، يقول: «كم أداريكم كما تدارى الكبارُ العُمَدة، والثيابُ المتداعية، كلما حيصت من جانب تهتكت من آخر؟ أكلَّما أطلَّ عليكم مَنْسرٌ من مناسر أهل الشام أغلق كل رجل منكم بابه، وانجحر انجحار الضَّبةِ في جُحرها، والضبع في وجارها»[٤٩].

فالعبارة معبّرة أحسن التعبير عن ألم الإمام عليه السلام مما يراه من أتباعه، فهم عاقون له، جاحدون لفضله عليهم، فبدل أنْ يطيعوه ويداروه، صار هو الذي يداريهم ويرأف بهم، كما يُراعى الجملُ الذي أصيب سنامه من الركوب، ثم يرسم لهم صورة في غاية الدقة لما هم عليه من ضعف وخور، حين شبّههم بالثياب المتهرئة، التي كلما خيطت من جانب تهتكت من جانب آخر، ثم عاد ليرسم لهم صورة في غاية القباحة وهم يتهربون من مقاتلة عدوهم، متخاذلين عن نصرة إمامهم، بل هم متقاعسون حتى عن الدفاع عن أنفسهم وحُرمهم وديارهم، فلا يملك إلا أنْ يقرعهم تقريعاً شديداً، ويستحضر في أذهانهم قباحة فعلهم، وهم يفرون من المواجهة ويسارعون بالاختباء في بيوتهم، وكأنّ في ذلك أمنهم وسلامتهم، وهم في ذلك إنّما يفعلون فعل الضبة حين يطلبها صائدها فتنجحر في جحرها هرباً منه، وفعل الضبع حين تختبئ في وجارها طمعاً في السلامة، وهم يعرفون جيداً لماذا اختار الإمام عليه السلام هذين الحيوانين مشبّها به لفعلتهما هذه، وذلك إنّهما من أنتن الحيوانات وأقذرها، كما أنّ فعلهما هذا لا ينجيهما من صائدهما على الرغم من اختبائهما، لأنّه لا يزال يطلبهما حتى يظفر بهما فيقتلهما، وهكذا هم هؤلاء المتخاذلون، يرون أنّ سلامتهم في الهرب من القتال والاختباء في منازلهم، ولكن الموت ملاقيهم، وشتّان بين الموت يأتي بعز وكرامة في ساحة القتال، وموت يذل به صاحبه ويلحق به وبأهله العار والشنار لأنّه قُتل وهو مختبئ في داره.

وفي واحدة من أجرأ الصور وأشدها دلالة على القبح يحاول الإمام عليه السلام أنْ يبدي لأتباعه المتخاذلين عن نصرته، الفارين من قتال عدوهم، مقدار

ابتذالهم وانحطاط هممهم، في محاولة أخيرة لهزّ هؤلاء الأتباع هزّاً عنيفاً علّه يوقظ في نفوسهم بقية من حمية أو عرقاً من رجولة يقول: «يا أشباه الإبل غاب عنها رعاتها، كلما جُمِعَتْ من جانب تفرقتْ من جانب آخر، والله لكأني بكم فيما إخالُ أن لو حمس الوغى، وحمي الضراب، وقد انفرجتم عن ابن أبي طالب أنفراجَ المرأة عن قُبلها»(٥٠).

فلا شك في أنّ الصورة التي رسمها التّشبيه البليغ بأُسلوب المفعول المطلق لأنفراج هؤلاء عن الإمام عليه السلام وتخاذلهم أمام عدوهم بقوله (انفرجتم عن ابن أبي طالب أنفراج المرأة عن قُبُلها) صورة في غاية الكراهة والقبح، ولكنها صادقة في التعبير عن دناءة أهل الكوفة وعجزهم عن ملاقاة عدوهم، فهم ليسوا رجالاً يفعلون فعلهم، ولا هم نساء حرائر صائنات لعرضهن وشرفهن، إنّما هم نساء عاهرات لا تملك أحداهن حين يداهمها خطر إلا أنْ تقدم عرضها وشرفها ثمناً لبقائها حية أو سلامتها من الأذى. إنّها صورة معبرة عن ابتلاء الإمام عليه السلام بمن ينصره ويلتف حوله في السلم، فإذا حانت ساعة اللقاء أو اشتدت حمى الوغى تفرقوا عنه، وأباحوا حرماتهم لعدوهم نجاة بأنفسهم.

ويصرح الإمام علي عليه السلام باستقباحه هرب مصقلة بن هبيرة الشيباني، وكان قد ابتاع سبي بني ناجية من عامل أمير المؤمنين وأعتقه، فلما طالبه بالمال هرب إلى معاوية في الشام، فيقول: «قبّح الله مصقلة فَعَلَ فِعْلَ السادات، وفرَّ فرارَ العبيد، فما أنطق مادحه حتى أسكته، ولا صدَّق واصفه حتى بكّته»(٥١).

فالتّشبيه البليغ بأسلوب المفعول المطلق جاء تعبيراً عن مفارقة كبيرة لفعلين يصدران عن شخص واحد، أحدهما

يدل على نُبل وكرم وهو افتداؤه الأسرى بشرائهم وعتقهم، والآخر يدل على ضعةٍ ودناءةٍ وهو الهرب إلى معسكر الأعداء تهرباً من دفع ما بذمته من مال، ففي الأولى فعلَ فعل السادات وفي الثانية فرّ فرار العبيد، فما كاد مادحه ينطق إشادة به، حتى ألقمه حجراً بهربه المذل، فاستحق من الإمام عليه السلام هذا الاستقباح وهذه الكراهة.

وفي صورة تشبيهية معبرة للإمام عليه السلام يقبّح فيها فعل بني أميةِ، وهم يريدون سرقة تراث النبي صلى الله عليه وآله ويساومون الإمام عليه، يؤكد صلابته في دينه، وثباته على إيمانه، إذ يثور غاضباً لله ولدينه فيقول: «إن بني أمية ليفوّقنني تراثَ محمد صلى الله عليه وآله تفويقا، لانفضنهم نفضَ اللّحامِ الوذامَ التَّربةَ»(٥٢).

والوذام جمع وذمة وهي القطعة من الكرش أو الكبد تقع في التراب فتنفض، ولا شك في أنّ تشبيه بني أمية بقطعة الكرش أو الكبد المرغة بالتراب فيه ما فيه من تقبيح لهم واستهانة بقدرهم، وفيه كذلك تعبير عن الشدة في الأخذ، وقدرة عظيمة من الإمام على نفضهم وهزهم هزاً عنيفاً، كما ينفض القصاب هذه القطعة من اللحم كي ينظفها مما علق بها من تراب، وهكذا سيكون فعل الإمام بهم إذا ما تمادوا في غيهم وظلوا على ضلالتهم.

ومن هذا الباب قوله مخاطباً عمرو بن العاص مقبحاً فعله في متابعته معاوية ومناصرته إياه طمعاً في غنائم تافهة ومكاسب دنيئة، فخسر دنياه وآخرته، يقول: «فإنك قد جعلت دينك تبعاً لدنيا امرئ ظاهرٌ غيُّه، مهتوكٌ سِتْرُهُ، يشين الكريمَ بمجلسه ويسفّه الحليم بخلطته، فاتبعت أثره وطلبت فضله اتباعَ الكلب للضرغام، يلوذ إلى مخالبه، وينتظر ما

يلقي إليه من فضل فريسته فأذهبت دنياك وآخرتك»[٥٣].

ويقيناً أنّ هذه الصورة الرائعة لذل عمرو بن العاص ودناءته في متابعته لمعاوية، قد جسّدت قباحة فعله وخور عزيمته حين ارتضى لنفسه أنْ يأكل ما يفضل من طعام غيره، شأن الكلب الذي لا يقوى على الافتراس فيتابع الأسد متابعة الذليل، كي يلتقط ما فضل من فريسته، يسدّ به رمقه.

وهذه الصورة المعبّرة لا تؤخذ بجزئياتها وإنّما في تشبيهها حالةُ بحالةٍ، فإذا أراد الإمام عليه السلام تشبيه عمرو بن العاص بالكلب وهو مستحق لهذا الوصف، لا يريد تشبيه معاوية بالأسد، لأن أفعاله لا ترقى إلى مكانة هذا الحيوان الذي صار رمزاً للشجاعة والمهابة والعز، أو لعل المراد منه هنا هو قدرته على الافتراس فحسب، وهكذا هو معاوية لا تكاد تلوح غنيمة أو منفعة إلا وأجهز عليها، حلالاً كانت أم حراماً.

إن الصورة التي رسمها التّشبيه البليغ بأسلوب المفعول المطلق «فأتبعت أثره وطلبت فضله إتباع الكلب للضرغام، يلوذ إلى مخالبه، وينتظر ما يلقى إليه من فضل فريسته» أظهرت عمرو بن العاص في أقبح أحواله وقد ارتضى لنفسه.

وقد عجز عن أنْ يكون هو المبادر أو القائد، أنْ يكون تابعاً ذليلاً، نهّازاً للفرص، لا يفعل ما يريد، وإنّما ينتظر من الآخرين أن يفعلوا كي يعتاش على فضلاتهم، فهو (يلوذ بمخالبهم) لأنّه أعجز من أنْ يكون له فعل، فخسر بذلك دنياه وآخرته.

أما دنياه فلأنه لم يحقق ما تمناه أو أراده وإنّما قنع بالقليل الذي يلقيه إليه معاوية، فعاش ذليلاً تابعاً، وأما آخرته فلأنه عرف الحق وانحرف عنه متابعة

للباطل، فلم يحظ بخير الدنيا ولا أمل له في خير الآخرة.

ومن تشبيهات الإمام أمير المؤمنين عليه السلام البليغة الأخرى التي خرجت لهذا الغرض:

١. «لا يدري أصاب أم أخطأ..... لم يعض على العلم بضرس قاطع، يذري الروايات إذراءَ الريح الهشيم»(٥٤).

٢. «فما يُدرك بكم ثار، ولا يبلغ بكم مرام، دعوتكم إلى نصر أخوانكم فجرجرتم جرجرةَ الجملِ الأسَرِّ، وتثاقلتم تثاقلَ النضوِ الأدبر»(٥٥).

٣. «وكأني أنظر إليكم تكشُّونَ كشيشَ الضِّباب، لا تأخذون حقاً، ولا تمنعون ضيماً»(٥٦).

٤. «أيّها الناس، لو لم تتخاذلوا عن نصر الحق، ولم تهنوا عن توهين الباطل، لم يطمع فيكم من ليس مثلكم، ولم يقو من قوي عليكم، لكنكم تهتم متاهَ بني اسرائيل»(٥٧).

٥. «سيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضعَ البرء والسقم وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب»(٥٨).

٦. «فوالله لقد ظهر الحق فكنتَ فيه ضئيلاً شخصك، خفياً صوتك، حتى إذا نعر الباطل نجمتَ نجومَ قرن الماعز»(٥٩).

٧. «أسرعت الكرة، وعاجلت الوثبة، واختطفت ما قدرت عليه من أموالهم المصونة لأراملهم وأيتامهم اختطافَ الذئبِ داميةَ المعزى الكسيرة»(٦٠).

٨. «ومَنْ زاغ ساءت عنده الحسنة، وحسنت عنده السيئة، وسكَرَ سُكر الضلالة»(٦١).

٣. بيان حال المشبّه: ويعني هذا أنْ حال المشبّه غير معلومة، أو إنّه غير محدد الصفة، فيأتي التّشبيه لبيان هذا الحال أو تحديد صفته، من خلال المشبّه به لكون صفته أو حاله معلومتين لدى المخاطب،

ولا سيما أنّ المشبّه به في هذا اللون من التّشبيه (المفعول المطلق) يكاد يكون حالاً من فاعل الفعل الذي يمثل المشبّه. ومثال ذلك قول الإمام علي عليه السلام وهو يتكلم على خلق الله سبحانه للسموات والأرض وموجوداتهما أول التكوين: «ثم أنشأ سبحانه ريحاً اعتقَمَ مهبَّها وأدامُ مربَّها، وأعصف مجراها، وأبعد منشأها، فأمرها بتصفيق الماء الزخار، وإثارة موج البحار، فمخضته مخضَ السّقاء، وعصفت به عصفَها بالفضاء»(٦٢).

فقد أراد الإمام أنْ يبيّن لسامعيه حال الكون في أول الخلق، وهو حال نجهله جهلاً تاماً، فكان لابد له من التماس مشبّه به معروف عند سامعيه ألفوا حاله وعرفوا صفته، فصور أمر الله سبحانه للريح كي تصفق الماء وتثير الموج كي تمخضه وتعصف به ليخرج زبده، كي تكون منه سماواته السبع، فشبّه مخضَ الريح لماء البحار بمخض السقاء بما فيه من لبن كي تخرج زبدته، وعصفها به بعصفها بالفضاء الذي لا أجسام فيه، وبذلك تكون في أشد حالات عصفها لعدم وجود مانع يمنعها، أو يحد من سرعتها.

وبذا كان التّشبيهان البليغان بطريقة المفعول المطلق (فمخضته مخض السقاء) و(عصفت به عصفها بالفضاء) خير وسيلة لبيان حال المشبّه المجهول عند السامعين بعد أنْ استحضر في أذهانهم مخض السقاء، وعصف الريح بالفضاء ومقايسة ذلك بعصف الريح بالماء امتثالاً لأمر الله كي يبدع الكون.

ومن كلام له عليه السلام يصف فيه فرح الناس بخلافته، وتزاحمهم على مبايعته زحاماً شديداً، إذ يقول «فتداكّوا عليَّ تداك الأبل الهيم يوم ورودها، قد أرسلها راعيها، وخلعت مثانيها، حتى ظننت انهم قاتلي أو بعضهم قاتلي بعض لديَّ»(٦٣).

فقد أراد الإمام أنْ يذكّر الناس بكيفية مبايعتهم له، وتقاتلهم لتناول يده الشريفة عهداً على الوفاء والمتابعة، ولكنّهم اليوم يخرجون عن طاعته ولا يمتثلون لكلامه في كل ما يأمرهم به، فكان التّشبيه البليغ بأُسلوب المفعول المطلق (فتداكوا علي تداك الابل يوم ورودها) وسيلته في تذكيرهم بتزاحمهم زحاماً شديداً كما تتزاحم الإبل العطاش يوم ورودها على الماء، وحتى يعظّم هذا التزاحم في شدته وكثرته قال (قد أرسلها راعيها) أي إنّها انطلقت بلا راع يردعها أو يهش عليها، وتأكيداً لهذا المعنى قال (وخلعت مثانيها) أي فكت معاقلها، فلا شيء يحول بينها وبين الماء، فاندفعت، لعطشها الشديد، متزاحمة يدفع بعضها بعضاً كي تصل قبل غيرها إلى الماء وهكذا كان هؤلاء الأتباع في تدافعهم وتكالبهم على المبايعة، حتى ظنّ الإمام أنّهم قاتلوه بتكالبهم وتزاحمهم، أو أنّ بعضهم يقتل بعضاً في حضرته؛ وفي كل ذلك إنّما يعّرض الإمام بأتباعه، ويذكرهم بما كانوا عليه أول البيعة وما أصبحوا عليه اليوم.

وفي حال مشابهة لما تقدم يذكّر الإمام عليه السلام في خطبة له سامعيه، بما كان عليه المسلمون في عهد النبي صلى الله عليه وآله حيث يلتفون حوله يقاتلون آباءهم وأبناءهم وأخوانهم وأعمامهم، دفاعاً عن دينهم ونبيهم، على ما كانوا يشعرون به من ألم وما كانوا يحسونه من غصّة، ولكن ذلك لم يزدهم إلا إيماناً وصبراً على القتال طمعاً بالنصر أو الشهادة حيث يقول واصفاً حال أولئك الأبطال:

«ولقد كان الرجل منا والآخر من عدونا يتصاولان تصاولَ الفحلين، يتخالسان انفسهما أيّهما يسقي صاحبه كأس المنون»[٦٤].

فهذا التّشبيه، شأن كل التّشبيهات السابقة، منتزع من البيئة العربية وموجوداتها، فحين يدبّ العراك بين فحلين من الجمال، وتحتدّ المنازلة ويشتدّ العراك، يبدأ كل فحل بالدوران حول صاحبه يحد النظر إليه ثم يهجم عليه بكل ما أوتي من قوة وعنف، فهذه الصورة التي ألفها السامع العربي، صارت وسيلته لمعرفة حال الفارسين المتقاتلين أحدهما مسلم يدافع عن دينه ونبيه، والآخر مشرك يدافع عن نفسه ومعتقده، يحد أحدهما النظر إلى الآخر كي ينزل الرعب في قلبه فيبادر إلى قتله قبل أنْ يعاجله خصمه بذلك. لقد أسهم التّشبيه البليغ بأُسلوب المفعول المطلق في بيان حال المسلمين الأوائل في قتالهم الصادق، الشديد الخالص لوجه الله، فكان نصرهم بمشيئته ومباركته، بعد أنْ رأى صدقهم في ذلك، وهو ما أكده الإمام عليه السلام بقوله: «فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت وأنزل علينا النصر».

ويحذر الإمام أتباعه من الفتنة التي دبّت بين المسلمين، وجعلتهم فرقاً، بعد وحدتهم، وأضعفتهم بعد قوتهم، ولذا سماها (ضلالة) فقال: «رأيت ضلالة قد قامت على قطبها، وتفرقت بشُعبها... تعرككم عركَ الأديم، وتدوسكم دوسَ الحصيد، وتستخلص المؤمن من بينكم استخلاصَ الحبةِ البطينة من بين هزيل الحب»[٦٥].

قامت الصورة في هذا المقطع من خطبة الإمام علي تشبيهات بليغة ثلاثة، جاءت كلها بأُسلوب المفعول المطلق (تعرككم عركَ الأديم) و(تدوسكم دوسَ الحصيد) و(تستخلص المؤمن من بينكم استخلاص الحبة البطينة من بين هزيل الحب) وغرضها جميعاً واحد هو بيان حال المشبّه؛ فإذا أراد الإمام من سامعيه أنْ يستشعروا الخطر القادم إليهم ويشركهم

فيما كان يخافه من عواقب هذه الفتنة المضلة للجميع، وكي يجسد في أعينهم ما ستفعله بهم إذ ستفركهم بشدّة وتدوسهم، ثم تطحنهم جميعاً، اختار هذه التّشبيهات الثلاثة المعبرة عما يخشاه الإمام عليه السلام على أمته من عواقب الفتن التي ستحكمهم حتى يعفوا عفاء الجلد المتهرئ، وتدوسهم كما يداس الحصيد كي تتكسر العودان وتزال القشور فيظهر جوهركم، حينها تنبذ الحبة الضعيفة والمصابة وسواها من هزيل الحب، ولا يبقى إلا المؤمن الصادق الإيمان، ولكن هل ينجو هذا بنفسه؟ كلا، فإنّ هذه الفتنة ستستخلص هذه الحبة البطينة لنفسها كي تطحنها برحاها، وبذلك فلا خلاص لأحد من هذه الفتنة القاتلة التي لا تترك أحداً، فالجميع سيقعون صرعى في رحاها التي لا ترحم وبذا كانت الصورة التي رسمها الإمام عليه السلام عِبر تشبيهاته الثلاثة تجسيداً لما سيؤول إليه حال المسلمين، إنْ لم يتنبهوا على الفتنة ودعاتها، ويستمعوا للحق وأهله من الربانيين العارفين بالله وحقه، وهم أهل بيت النبوة عليهم السلام.

وفي خطبته (القاصعة) الطويلة، يتحدث في جانب منها عن أخلاق النبي محمد صلى الله عليه وآله وكيف رباه خالقه فأحسن تربيته، مذكّراً الناس بموضعه هو من رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنه تربى في حجره، يضمه إلى صدره، ويكنفه في فراشه، ويمضغ الشيء ثم يلقمه فمه، ويزيد قائلاً: «ولقد كنت أتبعه إتّباعَ الفصيل أثَرَ أمِّهِ، ليرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالاقتداء به»[٦٦].

وبذا كان الإمام عليه السلام تربية الخالق جلَّ وعلا، فإذ ربى سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله فأحسن تربيته، ربى النبي علياً، فأحسن تربيته،

فكان ربانياً في خَلْقه وخُلُقه، وسيرته شاهدة بذلك.

كان التّشبيه البليغ بأُسلوب المفعول المطلق، خالق هذه الصورة التي التقطها الإمام عليه السلام من مفردات حياة العرب اليومية، كي يجسد لهم حاله وهو يقتدي برسول الله صلى الله عليه وآله ويتابعه متابعة الظل، وهي صورة (الفصيل) وهو ولد الناقة في متابعة أمّه حيث تسير كي يتعلم منها شؤون حياته اليومية ويسايرها فيما تفعله، وهكذا كان الإمام عليه السلام في اقتدائه برسول الله صلى الله عليه وآله ومتابعته في كل ما يقوله ويفعله، متابعة أرادها الله كي يتشرَّبها الإمام علي ثم تتسرب في بنيه من بعده، فيبقى الدين عزيزاً وعظيماً، كما أنزله الله على نبيه.

وفي كلام للإمام عليه السلام يتحدث فيه عن حادثته المشهورة مع أخيه عقيل، حين شكى له سوء حال عياله، وكان الإمام عليه السلام قد رأى ذلك بنفسه، فاستماحه صاعاً من القمح كي يطعمهم، نجد هذا الموقف الثابت للإمام في خشية الله سبحانه، وعدم التفريط بأموال المسلمين، حتى لأقرب الناس إليه وهو يرى حاجاتهم وعوزهم، يقول: «والله لقد رأيت عقيلاً، وقد أملق حتى استماحني منْ بُرِّكم صاعاً... فأصغيت إليه سمعي فظن أني ابيعه ديني، واتَّبع قياده، مفارقاً طريقتي، فأحميت له حديدة، ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها، فضجَّ ضجيجَ ذي دَنَفٍ من ألمها، وكاد أن يحترق من ميسمها. فقلت له: ثكلتك الثواكلُ يا عقيل، أتئن من حديدة أحماها إنسانها لِلَعِبه، وتجّرني إلى نارٍ سجرها جبارُها لغضبه»[٦٧].

أيُّ إيمان هذا، يملأ القلب حتى لا يدع فيه مجالاً لأدنى الأدناء، وأيّه خشية هذه، تكتنف العقل فتجعله مرتهنا لله سبحانه في كل خطوة يخطوها، إنّه الإمام

علي وحده الذي استولى عليه حب الله، وباع روحه وحياته ثمناً لرضاه، ولا قيمة لزعل الخلق وانفضاضهم عنه لما يفعل ما دام ما يفعله حقاً من حقوق الله، وفي القيام به رضاه عنه.

لقد رقَّ الإمام عليه السلام لكلام أخيه، وهو صادق فيما قاله عن عياله، فقد رأى الإمام عليه السلام ذلك بنفسه، وربما كان لعقيل وعياله حقّ فيما سألوا الإمام، ولكن خشية الله أحق، وكي يوقع الإمام هذه الخشية في نفس أخيه قام ما قام به، فكانت ردة فعل عقيل أنْ (ضج ضجيجَ ذي دنف) أي صاح صيحة المريض الذي اشتدّ به الألم، والحديدة المحمية لم تلامس جسده بعد، وإنّما دنت منه فحسب، فكان سؤال الإمام الرائع المفحم لعقيل، ولكل من يعرف هذا الخبر: هذا رد فعلك لنار بسيطة أشعلها بشر للهوه، فكيف بنار الخالق العظيمة التي أوقدها لغضبه؟ ومن التّشبيهات البليغة بأُسلوب المفعول المطلق التي جاءت بياناً لحال المشبّه في كتاب نهج البلاغة قول الإمام:

١. «انظروا إلى الدنيا نظرَ الزاهدين فيها، والصادفين عنها»[٦٨].

٢. «فلقد فلق لكم الأمر فلقَ الخرزة، وقرفه قرف الصمغة»[٦٩].

٣. «وصال الدهر صيالَ السبع العقور»[٧٠].

٤. «وهامت دوابُنا وتحيرت في مرابطها، وعجت عجيج الثكالى على أولادها»[٧١].

٥. «ثم أخرجُ في كتيبة أتبع أخرى، أتقلقل تَقَلْقُلَ القِدحِ في الجفير الفارغ»[٧٢].

٦. «فأقبلتم إقبال العوذ المطافيل على أولادها، تقولون: البيعة البيعة»[٧٣].

٧. «وانتظرنا الغيرَ انتظارَ المجدبِ المطرَ»[٧٤].

٨. «يمشي مشيَ المرح المختال»[٧٥].

٩. «ونستعين به استعانةَ راجٍ لفضله... مؤمل لنفعه»[٧٦].

١٠. «ثم تداككتم عليَّ تداكَ الأبل على حياضها يوم ورودها»[٧٧].

١١. «واختار من خلقه سُمّاعاً أجابو إليه دعوته، وصدقوا كلمته، ووقفوا مواقفَ انبيائه»[٧٨].

٤. تقرير حال المشبّه، وتمكينه في ذهن السامع، وذلك بإبراز المشبّه في صورة أقوى وأوضح من خلال مشبّه به قريب إلى نفس السامع ومما أحسه وعرف حاله، فيزيد المشبّه بذلك وضوحاً ورسوخاً في النفس. وفي هذا الغرض كان التّشبيه في قوله مخاطباً أصحابه الذين أتعبوه في تمردهم على طاعته وعصيانهم لأوامره، حتى بدا عاجزاً وهو القوي، وساكتاً وهو الحق، فيما صار معاوية مقتدراً، وهو الضعيف، وصائلاً وهو الباطل، لا لشيء، سوى طاعة اتباع هذا له طاعة عمياء، وتوحدهم حوله، واختلاف أتباع الإمام، وخروجهم عن أوامره... يقول: «أيتها النفوس المختلفة، والقلوب المشتتة، الشاهدة أبدانهم، والغائبة عنهم عقولهم، أظأركم على الحق، وأنتم تنفرون عنه نفورَ المعزى من وعوعة الأسد، هيهات أن أطلع بكم سرار العدل، أو أقيم أعوجاج الحق»[٧٩].

واضح من كلام الإمام عليه السلام شقاؤه بأصحابه الذين خذلوه في كل ما كان يدعوهم إليه، حتى صار عاجزاً عن إقامة العدل، أو تقويم اعوجاج الحق، فهو كلّما (أظأرهم) أي عطفهم على الحق ودلّهم عليه، نفروا منه، ولكي يقرر في نفوسهم مقدار هذا النفور في شدته وسرعته، شبّهه تشبيهاً بليغاً بأُسلوب المفعول المطلق بنفور المعزى عند سماعها زئير الأسد، فهم فزعون من الحق، خائفون من دعوته، وكأنّ فيه هلاكهم، متيقنون من موتهم، يقين

المعزى بهلاكها حين ترى الأسد مائلاً أمامها يزمجر تهيؤاً لافتراسها، إنّها صورة مؤلمة بكل ما فيها ليس في هؤلاء الأتباع الذين عصوا الإمام فحسب، بل في غياب عقولهم حين يخافون الحق هذا الخوف، فلم يعد أحدهم رجلاً، بل صار معزة يطير قلبها لمجرد سماعها زئير الأسد، وبذا كانت صورة الإمام - على ما تحمله من سخرية وتقريع - مجسدة لفزع هؤلاء الأتباع ومقدار خشيتهم من نداء الحق، ولا غرابة فقد قال الخالق سبحانه: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾[٨٠].

وفي موقف مناقض لما تقدّم، يرسم لنا الإمام في خطبة له صورة للمتقين، الصادقين في إيمانهم، الذين اشتروا آخرتهم بدنياهم، ويصف حالهم في الليل، وهم يمضونه في الصلاة وتلاوة القرآن «وأما النهارُ فحلماء علماء ابرار أتقياء، قد براهم الخوفُ بريَ القداحِ، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى، وما بالقوم من مرض»[٨١].

فهؤلاء المؤمنون يخشون الله خشية عظيمة، وهذه الخشية جعلتهم يهجرون الحياة وملذاتها، وينصرفون للعبادة والتقوى، وهكذا ضعفت أجسادهم، بعد أنْ براها خوف الله بري السهام التي تنحت بحجر الثقاف حتى تستوي ملساء، مستقيمة، نحيفة، رقيقة، إذا وقع عليهم نظر الناظر حسبهم مرضى، وما هم مرضى، ولكن زهدهم بحياتهم، واستكثارهم من التعبّد، جعلهم كذلك.

وبذا قرّر الإمام واحدة من صفات الأتقياء، الصادقين في إيمانهم، العاكفين على صلاتهم المكثرين من قراءة القرآن، وهي نحافة أجسامهم وبريها بري السهام الرقيقة، فكانت صورته التّشبيهية عبر التّشبيه البليغ بأُسلوب المفعول المطلق (قد براهم الخوف بري القداح) وسيلته البليغة في تقرير هذه الصفة في نفس الذي

سأله من أصحابه، أنْ يصف له المتقين حتى كأنه ينظر إليهم.

وفي موضوعه الأثير الذي كان الإمام دائم الكلام عليه، والوعظ به، وهو تحذير الناس من الاغترار بالدنيا، والانقياد لمباهجها، نجده يستعمل هذا اللون من التّشبيه لتقرير حال هذه الدنيا في تغيرها وتقلب أحوالها بأهلها.

فيشبهها بالسفينة التي تسير في عرض البحر والبحرُ هادئٌ رهوٌ، ومن عليها فرح مطمئن.

ولكن سرعان ما تهب الريح لتعصف بها فتميد بمن عليها، وتنقلب لتُغرق كل من فيها، يقول: «وأحذركم الدنيا، فإنها دار شخوص، ومحلة تنغيص، ساكنها ظاعن، وقاطنها بائن، تميدُ بأهلها ميدانَ السفينة تقصفها العواصف في لجج البحار، فمنهم الغَرِقُ الوبق، ومنهم الناجي على بطون الأمواج تحفزه الرياحُ بأذيالها، وتحمله على أهوالها، فما غرق منها فليس بمستدرك، وما نجا منها فإلى مهلك»[٨٢].

إنّها صورة مخيفة للدنيا، تجعلنا نحن السامعين نرى أنفسنا في لجة البحر وقد انقلبت بنا السفينة وتشتّت الناس بين غارق هالك، وناج يحاول أنْ يقاوم الموج كي يدرك الساحل، وآخر متشبث بما بقي من السفينة علّه ينجو، ولكن لا نجاة لأي منا فالموت محتوم وهو نهاية كل حي، ولعل سبب هذه القسوة في الوصف والرعب الذي تخلفه هذه الصورة فينا، هو أنّ الإمام يدرك جيداً أنّ الدنيا مغرية لأهلها بملذاتها، والنفس الإنسانية مجبولة على حب الراحة والدعة، وتميل إلى ما يسعدها ويبهجها، وبذا فإن مهمة الإمام ليست يسيرة وهو يحاول أن يصرف الناس عن هذا كله، ويقنعهم أنّه إلى زوال، وأنّ عليهم أنْ يصرفوا أنظارهم عنه، ويشخصوا بأبصارهم إلى آخرتهم، لأنها الدار

الدائمة، والمحلة الباقية، نعيمها خالد، وسعادتها لا تزول، وبذا لابد له من أنْ يستجمع بلاغته وخياله وما آتاه الله من علم، كي يقرر في نفوس سامعيه حال هذه الدنيا في تذبذبها وزوالها.

وهو ما تأتى له عبر التّشبيه البليغ بأُسلوب المفعول المطلق (تميد بأهلها ميدان السفينة تقصفها العواصف في لجج البحار) ثم يمضي بعد ذلك في رواية مصير هؤلاء الركاب وهلاكهم، وهو في حقيقة الأمر إنما يقرر في نفوس الناس حالهم في هذه الدنيا.

ويكرّر هذا المعنى في صورة تشبيهية أخرى لا تقل جمالاً وتأثيراً من سابقتها، فيقول: «وأحذركم الدنيا، فإنها منزلُ قلْعة، وليست بدار نُجْعَة، قد تزينت بغرورها، وغرّت بزينتها... خيرها زهيد، وشرُّها عتيد، وجَمْعُها يَنْفَد، ومُلْكُها يُسْلب، وعامرها يخَّرب، فما خير دار تُنْقضُ نقضَ البناء؟ وعُمُرٍ يفنى فيها فناءَ الزاد، ومدة تنقطع انقطاعَ السير»(٨٣).

فالتّشبيهات البليغة الثلاثة (تنقض نقضَ البناء) و(عمر يفنى فيها فناءَ الزاد) و(مدة تنقطع انقطاعَ السير) كلها جاءت بأُسلوب المفعول المطلق، كي تقرر معنى واحداً يريد الإمام أنْ يثبته في نفوس سامعيه، هو أنّ هذه الحياة الدنيا فانية، وإنّ حياتنا فيها مهما امتدت سنواتها فإنّها قصيرة، لا تكاد تذكر إذا ما قيست بالحياة الآخرة التي جعلها الله خالدة بكل نعيمها وملذاتها، أما هذه الدنيا فكل شيء فيها إلى زوال، وكي يُقنع الإمام الناس بما يقول صوّر لهم هذه الحياة بصورة البناء الجميل الرائع الذي يبهرنا ويخطف أبصارنا، ولكن سرعان ما ينقض ليعود ركاماً من أحجار وتراب، ولا جمال فيه، ولا قيمة له، وهذا العمر الذي نحياه مصيره إلى نفاد وانتهاء لأنّنا نأكل منه كل يوم شأن زاد المسافر الذي يتناقص يوماً

بعد يوم حتى ينتهي، وهذه المدة التي تمثل حياتنا، مصيرُها إلى انقطاع كالسير الذي ينقطع بك فجأة فلا تستطيع بعدها حراكاً، إنّها صور ثلاث متلاحقة يكمّل بعضها بعضاً كي يقرر للناس حال الدنيا بل حالهم هم فيها، علّهم يغفلون عنها وعن مغرياتها فهي ساس كل بلاء، والداء الذي ليس له دواء، سوى التذكير بسرعة فنائها وزوالها.

ويميز الإمام علي عليه السلام بفكره الثاقب، وعلمه العظيم، بين علم أهل بيت النبوة، وهم العلماء الحق، لأنّهم ربانيون في هذا العلم، وأدعياء العلم، ممن عرفوا منه شيئا وغابت عنهم أشياء، الذين حفظوا العلم ولكن لم يعقلوه، مشيراً إلى كثرة هؤلاء، وقلة أولئك، ولكن شتان ما بين الفريقين، يقول واصفا أهل بيت النبوة: «هم دعائم الاسلام، وولائج الاعتصام، بهم عاد الحق إلى نصابه، وانزاح الباطل عن مقامه، وانقطع لسانه من منبته، عقلوا الدين عقلَ وعاية ورعاية، لا عقلَ سماعٍ ورواية، فإن رواة العلم كثيرٌ، ورعاته قليلٌ»[٨٤].

فهذا التمييز الدقيق الذي أقامه الإمام عليه السلام بين رعاة العلم ورواته، هي معضلة زماننا هذا، كما كانت معضلة زمن الإمام، ولعلّها سبب كل ما نعيش فيه من فوضى في كثير من جوانب حياتنا اليوم، هو هؤلاء الذين تصدّروا مجالس الوعظ والفتيا، وهم ليسوا أهلاً لذلك لأنّ حفظ الشرائع، وترديد الأحكام، لا يغني الحياة، ولا يجعل الدين مواكباً لمسيرة الإنسان، إنّما الطريق الصحيح هو تحكيم العقل، لوعي الدين وعياً حقيقياً، أي استخلاص جوهره، وتشذيبه من كل ما علق به من قشور زائفة حجبت هذا الجوهر المكنون، وهذا موقوف على أهل بيت النبوة، فهم رعاة هذا الدين ووعاته، فهموه حق فهمه، ورعوه حق رعايته، لذا

لا نجد عندهم اختلافاً فيه، ولا حياداً عنه، ظاهرهم كباطنهم، وصمتهم كنطقهم، منهم يؤخذ الدين الحق، وبهم يقتدى، فكل علم إليهم مرجعه.

لقد استطاع الإمام بكلام موجز، ومن خلال التّشبيه البليغ بأُسلوب المفعول المطلق، أنْ يقرر كل هذه المعاني بقوله: «عقلوا الدين عقلَ وعاية ورعاية، لا عقل سماع ورواية»، فكان كلاماً في غاية الإيجاز ولكنّه ضمّ بين دفتيه معاني كبيرة تؤلف فيها الكتب. ومن صور الإمام التّشبيهية الأخرى التي خرجت لتقرير حال المشبّه من خلال التّشبيه البليغ المفعول المطلق:

١. «والذي بعثه بالحق لَتبَلْبلنَ بلبلةً، ولتَغربَلُنَّ غربلةً ولتساطن سَوْطَ القِدْر، حتى يعودَ أسفلُكم أعلاكم، وأعلاكم أسفلكم»[٨٥].

٢. «كأنّي بكِ يا كوفةُ تُمدِّين مَدَّ الأديم العاكاظي، تعركين بالنوازل، وتركبين بالزلازل، واني لأعلم أنّه ما أراد بك جبّار سوءاً إلا ابتلاه الله بشاغل، ورماه بقاتل»[٨٦].

٣. «فاتقوا الله تقيةَ ذي لبٍّ شغل التفكرُ قلبه، وأنصب الخوف بدنه»[٨٧].

٤. «ونؤمن به إيمان من عاين الغيوب، ووقف على الموعود»[٨٨].

٥. «بين أهل محلة مُوحِشين، وأهل فراغٍ متشاغلين، لا يستأنسون بالأوطان ولا يتواصلون تواصلَ الجيران»[٨٩].

٦. «فإنك مترفٌ قد أخذ الشيطانُ منك مأخذَه، وبلغ فيك أملَه، وجرى منك مجرى الروح والدم»[٩٠].

٧. «جعل الله ما كان من شكواك حَطّاً لسيئاتك، فإنّ المرض لا أجرَ فيه ولكنه يحط السيئات ويحتُّها حتَّ الأوراق»[٩١].

٨. «اعقلوا الخبر إذا سمعتموه عقلَ رعايةٍ لا عقل رواية، فإن رواه العلم كثير، ورعاتُه قليل»[٩٢].

٥. تزيين المشبّه ومدحه، للترغيب فيه، وحثّ الناس على الاتصاف بصفاته، وذلك بذكر مشبّه به تستحسنه النفوس، أجمعت العقول على فضله، وعرف الناس محاسنه فرغبوا فيه، فتجرى موازنة ومقايسة بينهما، تميل بعدها النفوس إلى المشبّه، وترغب العقول بالتحلي بصفاته.

ولعل هذا الغرض من أغراض التّشبيه هو الأقل وروداً في كتاب نهج البلاغة، ذلك أنّه في جملته، هو كتاب في الوعظ والتزهيد في الحياة الدنيا والإعراض عن مفاتنها والتذكير بأنّها فانية ومباهجها زائلة، والتمسك بأهداب الدين للنجاة بالنفس مما قد ينتظرها من عذاب الآخرة، ولذا كان المدح والتزيين غرضاً قليل الظهور فيما أثر من خطب الإمام عليه السلام وكتبه ووصاياه.

ومن هذا الغرض قوله في وصف الحج، وتحبيبه إلى الناس، وحثّهم عليه «وفرض عليكم حج بيته الحرام، الذي جعله قبلة الأنام، يردونه وورودَ الأنعام، ويألهون إليه وُلُوهَ الحمام»(٩٣).

فقد أراد الإمام علي عليه السلام أنْ يزين الحج في نفوس سامعيه ويصور الناس وهم يقدمون إلى الكعبة، هاربين من الدنيا وشرورها إلى حيث بيت الله الحرام كي تستقر النفوس وتسكن، وتلقي بأعبائها في فنائه فتستريح، فهي عطشى لهذا اللقاء، تأتيه متلهفة ضامئة له، شأن الأنعام التي ترد مناهل الماء العذب كي تطفئ ظمأها منه؛ فالناس في كل زمان محتاجون للشعور بالأمان والسلام.

فهم يريدون أنْ يتحرروا من أسر هذه الدنيا والهرب من شرورها، وليس أبرَّ من بيت الله ملاذاً يلجأون إليه، فيجدون فيه راحتهم فهم (يألهون) أي يفزعون إليه ويلوذون به، كما تلوذ الحمائم إلى أعشاشها ومواطن سكنها.

وفي خطبة أخرى يستذكر الإمام عليه السلام الرعيل الأول من المسلمين، ويحبب لنا صورتهم، وهم يتهافتون إلى الموت تهافت الفراش على النور دفاعاً عن دينهم، وذباً عن نبيهم، بعد أنْ عرفوا الإسلام فوعوه، وقرأوا القرآن فأحكموه؛ فيقول في حسرة واضحة: «أين القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبلوه، وقرأوا القرآن فأحكموه، وهيجوا إلى القتال فولهوا وَلَهَ اللقاحِ إلى أولادها، وسلبوا السيوف أغمادها، وأخذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً وصفاً صفاً»[٩٤].

فالإمام يستذكر بألم تلك الثلّة من المسلمين الأوائل، وصدق إيمانهم حين ينطلقون للقتال فرحين مستبشرين، لا يبشرون بالأحياء ولا يعزون بالشهداء؛ لأنّ الشهادة كانت غايتهم ورضا الله مناهم، فيما يقارن حالهم بحال اتباعه من حوله الذين يستسهلون طريق الشيطان، فيحلون عقدة الإيمان، حتى صار أحدهم إذا دعي للقتال دفاعاً عن الحق أخذته الرجفة وحاصت عيناه بحثاً عن مهرب.

أما أولئك المسلمون الحق فها هي صورتهم حبيبة إلى النفوس، قريبة من القلوب، فهم لصدق إيمانهم وثبات عقيدتهم وحبهم لرسول الله صلى الله عليه وآله يفزعون إلى الموت فزع الناقة التي كانت قد فارقت أولادها وعادت اليهم مشتاقة ولهة.

فكان التّشبيه البليغ بأسلوب المفعول المطلق وسيلة ناجحة في رسم مثال جميل وصورة محببة لأولئك المسلمين الأوائل، علّ هؤلاء يقتدون بهم.

وفي واحدة من عظاته المأثورة التي توجه بها إلى صاحبه الأشعث بن قيس معزياً إياه بولد له، وحاثاً إياه على الصبر والسلو، يقول: «إن صبرتَ صبرتَ صبرَ الأكارم، وإلاّ سلوتَ سلوَ البهائم»[٩٥].

لقد جمع الإمام في وصيته هذه، غرضين أولهما التحبيب والتزيين وثانيهما التقبيح والتكريه، فهو يذكّر الأشعث أنّ المصيبة مهما عظمت لا بدّ لها من أنْ تخف بمرور الأيام، فيسلو الإنسان وتهدأ نفسه ولكن الفرق كبير بين من يحمل نفسه على الصبر احتساباً وإيماناً، ومن تجبره الأيام عليه، فيسلو سلو البهائم، فصبر الإنسان على قضاء الله وقدره من كريم الشيم، ولذا حثّ الإمام عليه، فيما حذّر من السلو الذي تأتي به الأيام لأنّ شأن الإنسان فيه شأن الحيوانات التي تتناسى ما يمر بها من مصائب أو آلام.

ونجد غرض التحبيب واضحاً في كلام للإمام وهو يصف لأصحابه ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله من بساطة في العيش وتواضع في السلوك، فيقول: «ولقد كان صلى الله عليه وآله وسلم، يأكل على الأرض، ويجلس جلسةَ العبد، ويخصف بيده نعلَهُ، ويرقع بيده ثوبَهُ، ويركب الحمارَ العاري، ويُرْدِفُ خَلْفَه... فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمات ذكرها من نفسه»[٩٦].

فهو صوّر ما كان عليه النبي صلى الله عليه وآله من تواضع، وما كان يتصرف به من شؤون حياته اليومية، كواحد من أبسط الناس، لا لشيء إلا لأنه طلق الدنيا وزينتها، وأمات ذكرها من قلبه، كي يعلمنا كيفية الاقتداء به والحذو حذوه، وبذا لم تكن صورة الإمام إلا صورة واقعية استمدت كل عناصرها من أحداث يومية عايشها كثير من الصحابة، ورأوها بأعينهم، وإنّما أوردها الإمام هنا للتذكير والدعوة للاقتداء بما كان عليه سيد الخلق من بساطة وتواضع، ولعلّ في قول الإمام عبر التّشبيه بأُسلوب المفعول المطلق (ويجلس جلسة العبد) ما يؤكد هذه المعاني فقد خصّ العبد دون سواه من

الناس، كي يستحضر معاني الخشوع والبساطة والتذلل لله، فإذا كان هذا حاله وهو سيد الخلق، ومن غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكيف تراها تكون جلستنا نحن المحمّلين بالذنوب، السائلين المغفرة، والساعين لرضا الله، أنها صورة تحثّ الجميع على الاقتداء بسلوك رسول الله وأسلوب حياته، كي نتقرب من الله، ونكسب عفوه وغفرانه بمحاولة الاقتداء بسنة رسوله صلى الله عليه وآله.

(١) الإسراء: ٨٨.
(٢) هود: ١٣.
(٣) البقرة: ٢٣.
(٤) يونس: ٣٨.
(٥) النكت في إعجاز القرآن/ ٧٢. وقال الجاحظ كلاماً قريباً من هذا وهو يقف عند مقولة الإمام هذه. ينظر البيان والتبيين: ٨٣/١.
(٦) نهج البلاغة: ٣٦/١.
(٧) ينظر كتابنا: ألوان من التّشبيه في الشعر العربي / ٥٩ -٦٢.
(٨) نهج البلاغة: ٥٨/٢.
(٩) المستدرك على الصحيحين: ١٣٧/٣.
(١٠) نهج البلاغة: ٢٢/٢.
(١١) م.ن: ٦٣/١.
(١٢) م.ن: ١٥٥/٢.
(١٣) م.ن: ٥٧/٢.
(١٤) م.ن: ١٦٢/٢.
(١٥) م.ن: ١٢٢/١.
(١٦) م.ن: ٧٣/١ -٧٤.
(١٧) م.ن: ٤٨/١.
(١٨) م.ن: ٩٦/١.
(١٩) م.ن: ٢١٣/٣.
(٢٠) النمل: ٨١.
(٢١) الواقعة: ٥٥.
(٢٢) محمد: ٢٠.
(٢٣) القمر: ٤٢.
(٢٤) شرح ديوان امرئ القيس/ ١٤٠.
(٢٥) ينظر كتابنا: النقد البلاغي عند العرب: ٣٦٤ -٣٨٩.
(٢٦) العرف الطيب/ ٦٠٠.
(٢٧) علم أساليب البيان/ ١٨٦.
(٢٨) نهج البلاغة: ١٨٩/١.
(٢٩) م.ن: ٣٦/١.
(٣٠) م.ن: ٩٧/١ -٩٨.

(٣١) م.ن : ١٧٣/٢.
(٣٢) م.ن : ٢٠٤/٢.
(٣٣) م.ن: ٧٩/١.
(٣٤) م.ن: ٢١/١.
(٣٥) م.ن: ٨٣/١.
(٣٦) م.ن: ٣٠/٢.
(٣٧) م.ن: ٤٣/٢.
(٣٨) م.ن: ٦٦/٢.
(٣٩) م.ن: ٧٨/٢.
(٤٠) م.ن: ٨٨/٢.
(٤١) م.ن: ١١٠/٢.
(٤٢) م.ن: ١٥٦/٢.
(٤٣) م.ن: ٣/٣.
(٤٤) م.ن: ١٥/٣.
(٤٥) م.ن: ١٥٥/٣.
(٤٦) م.ن: ١٨٠/٣.
(٤٧) م.ن : ١٠٦/٢.
(٤٨) م.ن : ٨١/١.
(٤٩) م.ن : ١١٣/١.
(٥٠) م.ن : ١٨٩/١.
(٥١) م.ن : ٩١/١.
(٥٢) م.ن : ١٢٣/١.
(٥٣) م.ن : ٧١/٣.
(٥٤) م.ن: ٤٩/١.
(٥٥) م.ن: ٨٦/١.
(٥٦) م.ن: ٤/٢.
(٥٧) م.ن: ٩٦/٢.
(٥٨) م.ن: ١١/٢.
(٥٩) م.ن: ١٣٧/٢.
(٦٠) م.ن: ١٥٨/٣.
(٦١) م.ن: ١٥٨/٣.
(٦٢) م.ن : ١١/١.
(٦٣) م.ن : ٩٩/١ وقد كرر الإمام عليه السلام وصف هذا الموقف في خطبة أخرى ينظر م.ن : ٢٤٩/٢.
(٦٤) م.ن : ١٠٠/١.
(٦٥) م.ن : ٢٠٧/١ - ٢٠٨.
(٦٦) م.ن : ١٨٢/٢.
(٦٧) م.ن : ٢٤٣/٢ - ٢٤٤.
(٦٨) م.ن: ١٩٧/١.
(٦٩) م.ن: ٢٠٨/١.
(٧٠) م.ن: ٢٠٨/١.
(٧١) م.ن: ٢٢٥/١.
(٧٢) م.ن: ٢٣١/١.
(٧٣) م.ن: ٢٨/٢.
(٧٤) م.ن: ٥٤/٢.

(٧٥) م.ن: ٢/ ٩٠.

(٧٦) م.ن: ٢/ ١٢٥.

(٧٧) م.ن: ٢/ ١٤٩.

(٧٨) م.ن: ١/ ٢١.

(٧٩) م.ن : ٢/ ١٨.

(٨٠) المؤمنون: ٧٠.

(٨١) م.ن : ٢/ ١٨٧.

(٨٢) م.ن : ٢/ ١٩٥ - ١٩٦.

(٨٣) م.ن : ١/ ٢٢٠ - ٢٢١.

(٨٤) م.ن : ٢/ ٢٦٠ وكرر هذا التّشبيه في موضع آخر من النهج ينظر: ٣/ ١٧٢.

(٨٥) م.ن: ١/ ٤٣.

(٨٦) م.ن: ١/ ٩٢ -٩٣.

(٨٧) م.ن: ١/ ١٣٨.

(٨٨) م.ن: ١/ ٢٢٢.

(٨٩) م.ن: ٢/ ٢٤٧.

(٩٠) م.ن: ٣/ ١٢.

(٩١) م.ن: ٣/ ١٦٢.

(٩٢) م.ن: ٣/ ١٧١.

(٩٣) م.ن : ١/ ٢١.

(٩٤) م.ن : ١/ ٢٣٤.

(٩٥) م.ن : ٣/ ٢٥٢.

(٩٦) م.ن : ٢/ ٧٤ - ٧٥.

المصادر والمراجع:

١ - القرآن الكريم

٢ - ألوان من التّشبيه في الشعر العربي / أ. د. عبد الهادي خضير نيشان، دار الفراهيدي للنشر والتوزيع بغداد، الطبعة الاولى ٢٠١٠.

٣ - البيان والتبيين/ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي - القاهرة الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.

٤ - شرح ديوان امرئ القيس ومعه اخبار المراقسة واشعارهم، تأليف حسن السندوبي، مطبعة الاستقامة بالقاهرة.

٥ - العرف الطيب في شرح ديوان ابي الطيب / الشيخ نصيف اليازجي، صوب نصوصه وضبطها وقدم له الدكتور عمر فاروق الطباع، شركة دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

٦ - علم اساليب البيان / الدكتور غازي يموت، دار الأصالة للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة الاولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م بيروت.

٧ - المستدرك على الصحيحين / الحاكم النيسابوري، ابو عبد الله محمد بن عبد الله ، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٨ - النقد البلاغي عند العرب إلى نهاية القرن السابع للهجرة/أ. د. عبد الهادي خضير نيشان، دار الفراهيدي للنشر والتوزيع - بغداد الطبعة الاولى ٢٠١٣م.

٩ - النكت في اعجاز القرآن/ الرّمّاني، ضمن كتاب "ثلاث رسائل في اعجاز القرآن "حققها وعلق عليها محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول عبد السلام، دار المعارف بمصر.

١٠ - نهج البلاغة للإمام علي عليه السلام شرح الإمام محمد عبده / تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة الاستقامة.